الديـن والمعجـزة

في

فكـر هيـوم التجريبـي

مقدمــــة

مقدمـــة

كانت الفلسفة فى العصر الوسيط دعامة قوية للدين ، تسانده وتؤيده بالعقل والحجة ، فقد جعلت الفلسفة من الفكر الدينى الإيمانى فكراً عقلياً مستنيراً ، ينتشر فى أرجاء العالم .

وفى العصر الحديث طالب ديكارت بحرية العقل الإنسانى واستقلاله بعيداً عن كل سلطة خارجية ، ونادى بتحرير الإنسان - بواسطه العلم - من سيطرة الطبيعة ، فأصبح الإنسان بذاتيته وفرديته محور البحث الفلسفى . وفى ذلك الوقت كان الفلاسفة الإنجليز - حسيين وتجريبين وتحليليين - يخضعون للواقع فى مجال المعرفة ، مهمتهم رفض كل ما يتصف بالضرورة والثبات ، الفلسفة لديهم ليست إلا تحليلاً للأفكار وتفتيتاً للواقع . لا شئ سوى الإحساس والخبرة الحسية ، أما العقل فوظيفته تنقية هذه الخبرة وتصفية التجربة الإنسانية لمعرفة مغزاها . ونتيجة لهذا الإتجاه رفض الفكر الإنجليزى البحث فى الميتافيزيقيا التقليدية، واقتصرت الفلسفة على البحث فى مشكلة المعرفة وطبيعتها ، وذلك بتحليل هذه المعرفة من أجل البحث عن أصولها فى الذهن الإنسانى.

هكذا بدأت الفلسفة الإنجليزية برفض الأفكار الفطرية عند ديكارت ، ولجأت إلى التجربة من أجل البحث عن مصدر المعرفة الإنسانية ، واعتقد بيكون أن الهدف الأسمى للعلم يجب أن يكون زيادة قدرة الإنسان على الأشياء وذلك لن يكون إلا بفضل العلم التجريبى .

وإذا كان نيوتن قد نجح فى الكشف عن قوانين الكون والمادة فإن هيوم يريد أن نحقق نفس النجاح بالنسبة للطبيعة الإنسانية ، لهذا كان كثير التأمل والتفكير فى الطبيعة باحثاً عن المعرفة ، متحمساً إلى حد كبير لمنهج

نيوتن . وقد أشار فى خطاب إلى صديق له إلى ضرورة السعى إلى بناء العلوم من جديد على أساس دراسة علمية للطبيعة البشرية .

ويعتبر كتاب « البحث فى الطبيعة الإنسانية » * أهم مؤلفات هيوم الفلسفية ، ومقدمته تشبه إلى حد كبير مقدمة كتاب « نقد العقل الخالص » لكانط ، وكلاهما يبدأ بنقد الفلسفة، نقد العقل الإنسانى، والفحص عن أصول تصوراته ومبادئه وينتهى بنقد العقائد الأخلاقية والدينية .

ونحن لا نجانب الصواب حين نرى أن مؤرخى الفلسفة كانوا على حق حين رأوا فى فيلسوفنا أباً روحياً للفيلسوف الألمانى كانط صاحب المنهج النقدى ، وقد أشاد كانط نفسه بعبقرية هيوم واعترف بفضله عليه حين قال عنه فى كتابه « مقدمة لكل ميتافيزيقيا مقبلة » إن هيوم أيقظنى من سباتى الدجماطيقى منذ سنين مضت » .

ونحن نتساءل : ما هى المسألة الفلسفية الأساسية فى نظر هيوم ؟

من الواضح أن جميع العلوم الخاصة بالرياضيات والفيزياء والدين الطبيعى تتصل إتصالاً وثيقاً بالطبيعة أو « بعلم الانسان » ، باعتباره أساساً لجميع العلوم الأخرى ، لذلك يجب أن نبدأ أولاً بدراسة طبيعة هذا الذهن ،

---

* مقال فى الطبيعه البشرية : محاولة لتقديم منهج تجريبى للتفكير فى المسائل الأخلاقيه -Atreat ise of Human Nature: Being an attempt to introduce the experimental Method of Reasoning into moral subjects.1739. هذا الكتاب الذى يعد أفضل مبحث لآراء هيوم من حيث الشمول والدراسة المنهجية باعتراف هيوم لم ينل حظاً من الشهرة .

« لم تلق قط أى محاولة أدبيه من سوء الحظ مثلما لقيت رسالتى فى الطبيعة البشرية ، فقد سقطت من المطبعة مولولاً متياً » .

ويعتقد هيوم أن العزوف عن المقال جاء نتيجة سوء فهم للآراء التى تحتمنها .

كى نعرف المجالات المختلفة التى تمتد فيها المعرفة الإنسانية ، فكل معرفة صحيحة يجب أن نستمدها من الملاحظة والتجربة .

وقد جاء « مقال فى الطبيعة البشرية » فى صورة تساؤل أو محاورة .

المعرفة الإنسانية ، العواطف الإنسانية ، الأخلاقيات الإنسانية .... ماذا تكون ؟ هى ليست أكثر من الطبيعة الإنسانية .... لو استثنينا الإنسان من كل هذا فلا يبقى شئ .

لهذا فالمهمة الأساسية للفلسفة كما يتصورها هيوم ليست إعادة بناء المعرفة - على الطريقة الديكارتية ، لأنه لم يعتقد فى إمكان ذلك ، ولم ير فى معرفة وجود الله والنفس والعالم أيه أهمية ، بل على العكس فهو يرى أن جميع الأنساق الميتافيزيقية التى تزعم أنها جاءت بمعرفة عن الطبائع الحقة للأشياء ، لا تزيد عن كونها حجباً تتخفى وراءها الخرافات الدارجة .

ومهمة الفلسفة الإنسانية هى كشف هذه الحجب كى تبين الحقيقة ، لهذا كان غرض هيوم - كما نص على ذلك . أن يزعزع أركان الفلسفة :

يقول هيوم : « فلما كانت عاجزة عن الدفاع عن نفسها على أسس الحقيقه ، لجأت إلى غرس مثل هذه الأشواك لتغطية نقاط ضعفها وحمايتها .

« من الثابت أن الفلسفة السهلة الواضحة أفضل من الدقيقه المستغلقة ، فهى اكثر متعة وأعظم ثمرة » [1] .

وهنا يقترب هيوم من منهج ديكارت ، ولا عجب فى هذا فالعصر بأسره هو عصر الوضوح والتميز ، والأساس الذى يعتمد عليه الوضوح هو

---

(1) Hume (D): An Inquiry. P20.

العقل السليم Comman Sense - وإذا كان ديكارت يقيم التفكير على المنهج الرياضى المستند إلى مبادئ فطرية فى العقل ، فإن هيوم يستند إلى المنهج التجريبى القائم على الملاحظة والتجربة والاستنتاج .

وقد أراد بهذا المنهج أن يعلم أولا حدود العقل البشرى بأن نحلل قواه تحليلاً دقيقاً لنرى هل فى مقدوره أن يبحث فى هذه الموضوعات المستغلقة البعيدة الغور .

وإذا كانت الفلسفة فى جوهرها ليست اثباتاً ولا نفياً ، وإنما هى تساؤل واستفهام ، فإن هيوم فى منهجه يتمتع بأهم خاصية من خصائص الروح الفلسفية : الدهشة والتعجب والقدرة على طرح التساؤلات وإبداء الملاحظات ، وإنطلاقاً من هذا نأتى إلى التساؤل الرئيسى والقضية المحورية فى هذا البحث : ما الموقف من الدين والمعجزة فى ضوء المنهج التجريبى ؟

وفى محاولتنا الإجابة على هذا التساؤل سوف نتتبع آراء هيوم من هيوم نفسه ، ونتبع منهج هيوم النقدى لنرى هل يعد حقاً رائداً من رواد التجديد الفلسفى فى العصر الحديث ، ونبين إلى أى مدى نجح هيوم فى عرض أفكاره الفلسفية والدينية ، وكما يقول آير : « علينا أن نعامل هيوم - ليس كلاحقاً للوك أو باركلى ، ولا مبشراً لكانط ، ولكن كفيلسوف له آراء أصيله تستحق النظر إليها نظرة جادة ».[١]

- وأول من نظر إليه هكذا هو الشارح لفلسفته : نورمان كمب سميث

---

(1) A.j. Ayer : Hume : Oxford .1980 . P.5.

فى كتابه عن هيوم : ديفيد هيوم : دراسة نقديه للمذاهب الأصلية والمركزيه ١٩٤١ .

ويتضن هذا البحث مجموعة من الإشكاليات أو التساؤلات

– ما النتيجة أو المحصلة النهائية لنقد هيوم للدين الطبيعى ؟ وإلى أى مدى يشكل هذا النقد جزءاً من فلسفته العامه .

– نقد هيوم لبرهان المماثلة أو البرهان القائم على النظام يبرز مجموعة من التساؤلات :

– فى هذا البرهان عوالم عديدة ربما تكون غير مقنعة ،

– كيف ثبتت وحدة الله فى هذا البرهان ؟

الاستعراض الكئيب للعالم ؟ ولماذا يوجد البؤس والضعف فى العالم؟

– لماذا رفض هيوم البرهان الذى يجعل الله هو المنظم للعالم ثم نظر إليه بوصفه روح العالم ، ثم رفض هذا أيضاً : على أى اساس ؟

– أين نجد هيوم اكثر أو أقل إقناعاً ؟

– **فيما يتعلق بالمعجزة :**

– لماذا اهتم هيوم بنقد الاعتقاد فى المعجزات ؟

– هل البرهان للإعتقاد فى إطراد الطبيعه أقوى عن طريق المعجزة أم التجربة ؟

– هل يستخدم هيوم لفظ المعجزة بمعنى واحد ؟

– لماذا المسيحى – الذى يعتقد فى المعجزات – يكون على وعى بها فى داخله ؟

- ما الفرق بين نقد البرهان على المعجزة ، نقد المعجزة كأساس للدين ؟ أيهما الأكثر تدميراً ؟

- لماذا حاول هيوم أن ينقد برهان الاعتقاد فى المعجزه من أن يحاول أن يثبت عدم حدوث المعجزة .

- أيهما أفضل : أ - أن تعتقد أن الله يوجد لأنك تعتقد فى حدوث المعجزة (ب) أم أن تعتقد فى حدوث المعجزة لأنك تعتقد أن الله موجود ؟

كل هذه تساؤلات يطرحها البحث من خلال تفسير هيوم لها نحاول أن نتعرف على موقفه من الدين والمعجزة .

ويتألف هذا البحث من عدة محاور يكمل كل منها الاخر ويكتمل به - مقدمة ، ومدخل للفكر الفلسفى الدينى عند هيوم يتضمن التمهيد لهيوم والفكر التجريبى وإلى أى مدى استقى هيوم مذهبه الدينى من هذا الاتجاه ، ثم عرض لإشكالية المنهج عند هيوم ثم نعقب ذلك بعرض مفهوم السببية عنده ونحاول أن نجيب على هذه التساؤلات : ما معنى السببية عند هيوم وهل لها وجود داخل نسقه الفلسفى ؟ وهذين المحورين معاً - المنهج التجريبى ، السببية - يشكلان أهمية بالغة فى فكر هيوم لأنهما البداية للشك المعرفى والتمهيد للاعتقاد الدينى .

أو بمعنى آخر لا يمكن فهم النظريه الدينيه عند هيوم إلا فى ضوء المنهج التجريبى .

فشك هيوم فى الأمور الدينية - على مستوى المعرفة - إنما هو تمهيد لليقين بها يقيناً تدعو إليه الحياة ، وهذا ما سوف نراه واضحاً فى المحاورة الأخيرة من كتاب المحاورات حين يبين هيوم - على لسان

فيلو - أن نقده للدين الطبيعى يفسح المجال للوحى والإيمان .

نأتى بعد ذلك إلى القضية المحورية فى هذا البحث وهى :

الدين والمعجزة فى ضوء الإتجاه التجريبى ، وحاولنا عرض هذا الجزء من خلال هذه المحاور :

١- البرهان على وجود الله عن طريق الخطة أو القصد argument from design.

٢ - البرهان على وجود الله من خلال ما يعرف بقانون السببية . وقد عرض هيوم لهذا فى كتابه :

« محاورات فى الدين الطبيعى » .

٣- البرهان على وجود الله عن طريق المعجزة : هل تصلح المعجزة كأساس للدين ؟

وقد عرض لهذا فى الفصل العاشر من كتابه : بحث فى العقل البشرى on miracles

وبداية نود أن نشير إلى نقطة على درجة من الأهمية ، وهى أن هيوم فى تفسيره لهذه القضايا الدينية لم يضع حلولاً قاطعة أو إجابات يقينية ، وإنما إتبع منهج الحوار القائم على الإقناع ، لأنه يرى أننا لا نستطيع أن نصل إلى إجابات يقينيه قاطعة حول هذه الأمور ، وحسبنا أن نؤمن بها أو نشك فيها ولكن لا يمكننا البرهنة عليها بواسطة العقل وحده .

من ناحيه أخرى ، القضايا التى تعرض على لسان هيوم فى هذا البحث ليست صائبة تماماً أو منسجمة كلية ، وعلينا ألا نكون مرددين له فقط ، وألا نكتفى بما أورد هيوم من آراء ، بل أن نتبع منهج هيوم نفسه

وهو النقد حين يوجب ذلك ، فهدفنا ليس هو نشر فكر هيوم فقط ، وإنما فهمه لإبرازما له وما عليه ، والافادة من الجوانب الإيجابية فى فلسفته . ولنتبع مقولة كانط الشهيرة :

« دع خصمك يعبر عما يقصده حقاً ، ولا تحاربه إلا بأسلحة العقل وحدها » . نقد العقل الخالص .

– والحق أنه لا يمكن لفيلسوف أن يفلت من هذا المصير ، فالنقد الفلسفى جزء لا يتجزأ من ماهية الفلسفة ، وبدونه لا يمكن لأى فكر أن يتقدم . وسهام النقد التى توجه إلى الفيلسوف من كل مكان قد تكون فى الغالب دليلاً على شهرته وعظمته لا على ضعفه وضآلة شأنه .

ولسنا نريد هنا أن نخوض فى دقائق فلسفة هيوم ، ولكن حسبنا أن نقول أن فهم الدين عنده يتطلب ربطه بالمؤثرات الفلسفية التى أثرت فى فكره الفلسفى من ناحية ، ومحاولة تفسير الدين فى ضوء المنهج التجريبى من ناحية أخرى .

وبقى أن نقول ان هيوم من أبرز فلاسفة القرن الثامن عشر، والدارس للفكر الغربى مدرك تماماً أنه لا يمكن تخطى هذا الفيلسوف والتغافل عن فلسفته سواء فى جانبها النقدى أو الايجابى ، ويكفى أن فلسفته إمتدت إلى ميادين شتى من البحث : المعرفة ، النفس ، الأخلاق والسياسة ، والدين ، وهذه كلها أجمعت على قوة فكره وأصالته .

ولعلنا بهذه المحاولة نكون قد طرقنا زاوية جديدة من زوايا فلسفة هيوم ونرجو أن تكون هذه المحاولة قد نجحت إلى حد ما فى تقديم هيوم بثوب جديد . والله الموفق . نسأله التوفيق والسداد .

الفصل الأول

مدخل إلى فلسفة هيوم* الدينية

مدخل إلى فلسفة هيوم* الدينية

هيوم بين معاصريه

ترجع قيمة هيوم بين معاصريه إلى التساؤلات التى أثارها أكثر من الإجابات التى اقترحها ، وقد اعترف هيوم نفسه بأنه غير قادر على حل بعض المشكلات التى لا تخضع للحل الانسانى .

وعلينا توضيح أهم التيارات الرئيسية التى اهتم بها هيوم ووصف تأثره بها إيجاباً وسلباً ، ووجدت فى أعماله :

(١) الانساق الميتافيزيقية العقلية فى القرن السابع عشر عند هوبز ،

---

* يقول آير فى دراسته عن هيوم

« يعد هيوم بالنسبه لى أعظم فلاسفة بريطانيا ، ولد فى أدنبرة ، فى السادس والعشرين من ابريل١٧١١ وتوفى فى سنه ١٧٧٦ عن عمر يناهز الخامسة والستون .[١]

وتتضح السيرة الذاتيه لهيوم من خلال مقاله الأخير « حياتى الخاصة . my own life ، التى تدور فى خمس صفحات ، دونها هيوم قبل أربعة شهور من وفاته ويختتم هيوم هذه السيرة الذاتيه بذكر أخلاقه الخاصه فيقول :

« أنا الآن أو على الأصح كنت رجلاً معتدل المزاج ، صاحب قيادة وسيطرة ذو طبع اجتماعى مرح، قادر على الوداد ، قليل الميل إلى الكراهية والعداء ، شديد الاعتدال فى جميع عواطفى وأهوائى[٢] .

وقد وصفه صديقه آدم سميث بقوله : « هكذا يموت اكثرنا عظمة ، وهو صديق لا يمكن نسيانه ، وفيما يتعلق بآرائه الفلسفية فإننا نختلف دون شك فى هذا ، أما عن شخصية هيوم وأخلاقه نادراً ما يوجد إختلاف . على أية حال ، أنا اعتبر هيوم ، فى حياته وحتى مماته ، يقترب بقدر الامكان من رجل الفضيلة والحكمة التامة[٣] .

(1) Hume: A.j. Ayer. The study of Hume Nature. P.1:14.

(2) J.Y.T. Greig: D. Hume: ABiography.P.59-63.

(3) Hume: Theory of Knowledge. containing The enquiry concerning Human understanding.p.vil:xxil.

ديكارت ، ليبنتز ، سبينوزا ، مالبرانش . معظم هؤلاء تتلمذ على طريقة إقليدس ، وأجمعوا على صدق الفروض المطلقة والقضايا العامة عن طبيعة، النفس ، الله ، العالم .

(٢) تأثير إسحاق نيوتن Isaac Newton ، والاتجاه التجريبى . وأفكار نيوتن كانت تدرس فى أدنبره ، حينما كان هيوم طالباً على وجه التقريب ، على يد اثنين من أساتذة الرياضيات هما چيمس جرجورى J. Gregory ، جولين ماكلارين G.Maclaurin .

(٣) تأثر هيوم بالمدرسة التجريبية البريطانية ، من خلال فلسفة لوك ، شافتسبرى ، مانديڤل ، هاتشيسون ، چوزيف بطلر، الذين تتبع هيوم مناهجهم فى مجالى الفلسفة والأخلاق .

وقد ارتبط فكر هؤلاء بشك فى الانساق العقلية ، كما ارتبط بفحص وظائف ومبادئ العقل الإنسانى من أجل تأسيس معرفتنا وواجباتنا .

(٤) فيما يتعلق بمجال الأخلاق ، تأثر هيوم بالانساق العقلية التى يعد صمويل كلارك S. Clarke أفضل معبر عنها ، الذى بدوره يدين لنيوتن بالإعجاب .

(٥) تأثر هيوم بصراعات ودعاوى القرون السابقة، بين الكاثوليك والبروتستانت ، ثم بين أصحاب مذهب التوحيد ، المنكرين للوحى.[1]

نخلص من هذا إلى أن هيوم تأثر بالكثير من معاصريه رغم إنتقاده لهم ، وجاءت فلسفته تعبيراً عن روح العصر ، وفى تصوره أن الفلسفة يجب أن تواكب التجربة ، فلا تقدم حقيقى إذا لم يتم تحليل الخبرة البشرية .

---

(1) Hume [From The Encyclopidia of ph. vol.3-4. p.74-75.

نقد العقل :

فى عام ١٧٤٨ نشر هيوم كتابه «بحث فى العقل البشرى» والذى حاول فيه معالجة أوجه النقص التى وردت فى المقال. وفى القسم الأول من هذا الكتاب يذكر هيوم :

«سأحرم الفكر المستغلق والأبحاث العميقة، وسأوقع عقوبات صارمة مع من يقترفون جريمة هذا النوع من الفكر ، واللايقين الذى لا ينتهى الذى يدفعونك إلى الانغماس فيه، والتقبل الفاتر لهذه الكشوف المصطنعة عندما تذاع»[١].

«فى حياتنا اليومية ، وفى كل أبحاثنا (عدا الرياضيات) نتعامل مع الماديات ، وعلينا أن نعتمد على المنهج التجريبى القائم على الملاحظة والتعميمات الاستنتاجية كى نحصل على نتائج محتملة»[٢].

«رغم أن التجربة هى سبيلنا الوحيد فيما يتعلق بأمور الواقع ، إلا أنه علينا أن نعرف أن هذا المرشد غير منزه عن الخطأ تماماً ، لأنه - فى بعض الأحوال - قد يقودنا إلى الأخطاء»

من هذا نتبين أن العقل عند هيوم لا يستطيع أن يعرف الأشياء المادية ، وحتى عن طريق المنهج التجريبى فالنتائج ليست يقينة ولكنها احتمالية.

«كل العلوم لديها علاقة، تزيد أو تنقص، بالطبيعة البشرية الرياضيات ، الفلسفة الطبيعية ، الدين الطبيعى ، هى بمعيار ما تعتمد على علم الإنسان ، ويحكم عليها من خلال الطاقة الإنسانية[٣].

---

(1) Hume (d) : An Enquiry Concerning Human understanding ed. Charles. W. Hendel. 1955. p.18.
(2) Ibid : Introduction . XIX
(3) Hume: Enquiry P.238. Hume : Barry Stroud published in 1977 by Routlege and Kedon poul: London1977 p.142.

«منهج هيوم سواء فى (المقال) أو فى بحث فى (العقل البشرى) هو المنهج التجريبى الذى شاركه فيه لوك ، واستمد عناصره من نيوتن ، وهو يعتمد على الملاحظة والتجربة، هذا المنهج هو سلاح ضد الخرافات والخزعبلات ، وقد حاول تطبيقه على دراساته الاخلاقية والسياسية، أما عن الدين فلم يصل إلى رأى قاطع، وهو فى مذهبه الفلسفى لم يستطيع أن يحدد طبيعة النفس أو الأنا تحديداً واضحاً، أما عن طبيعة الله فلا يستطيع العقل أو التجربة معرفتها »(١).

يقول هيوم : «كما أن علم الإنسان هو الدعامة الوحيدة الراسخة للعلوم الأخرى، ينبغى أن تبنى هذه الدعامة التى نستطيع أن نمد بها علم الإنسان على الملاحظة والتجربة، ومع ذلك ليس من شأن علم الإنسان أن يبحث فى جوهر النفس، وعلينا أن نفسر المعلومات بأبسط العلل وأقلها عدداً» .

ومن اليقينى أننا لا نستطيع أن نصل إلى ما وراء التجربة، وكل فرض يدعى اكتشاف الكيفيات الأصلية النهائية للطبيعة البشرية يجب أن ننبذه دفعة واحدة باعتباره أمراً وهمياً وليد الخيال(٢).

وفى خطاب من هيوم إلى هرميوس* يوضح هيوم أهمية المنهج القائم على الحوار، وكيف أن الفلاسفة القدامى قد صاغوا معظم تعاليمهم فى صيغة الحوار، إلا أن هذا المنهج قل أتباعه فى العصور الحديثة.

يقول هيوم : «إذا كانت مسائل الفلسفة بالغة فى غموضها وعدم

---

(1) Hume : A . J . Ayer : Oxford University Press. 1980 ch. II. Aims and methods . p.15:34.

(2) Hume : Treatise : p.20-21.

(*) تلميذ كلينث (أحد المحاورون الثلاثة فى كتاب «محاورات فى الدين الطبيعى» راجع هنا كتاب : محاورات فى الدين الطبيعى . ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى ص ١٠ وما بعدها .

يقينها، حتى أن العقل البشرى لا يستطيع أن يصل فيها إلى قرار محدد، فإذا حاولنا أن نعالج هذه المسائل وجب علينا اتباع إسلوب الحوار، وحتى إذا لم نأت برأى قاطع، فإن هذا الإسلوب يهبنا لذة محببة .

نحن نستخدم – كما يقول هيوم – فى أحاديثنا كلمات من قبيل العلاقة والجوهر والعلة والرابطة الضرورية، فما الذى نقصده بها؟ أهى حقائق يقينية وموضوعية، أم أنها قوالب لفظية فارغة؟ علينا أن ننظر فى حقل تجاربنا لنعود بالأفكار المعقدة الغامضة إلى أصولها الأولى البسيطة الواضحة، وفى هذا المنهج الذى نتبعه خير عاصم من الأنزلاق فى مهاوى الوهم والباطل .

«الغموض موجع للعقل، مثلما هو موجع للعين، لكن إلقاء الضوء على الغموض، وإزالة اللبس، بقدر من الجهد سيكون مصدراً للفرح والبهجة»[1] .

الشك : Skepticism*

– فرق هيوم بين نوعين من الشك :

شك سابق ، شك لاحق Antecedent . Consequent ، الأول هو الشك البيرونى المتطرف ، الثانى هو الشك المعتدل .

والنوع الأول من الشك هو الذى يتخذه صاحبه بطريقة مسبقة أوليه دون الرجوع إلى فحص قدرات العقل أو منهج التفكير ومثل هذا الشك – فيما يقول هيوم – لا يمكن الوقوف عليه لأنه سيكون مدمراً تماماً .

أما الشك اللاحق أو المعتدل Mitigated ، الذى تبناه هيوم ، فهو ليس

---

(1) Hume : Enquiry : p.20

(*) عرض هيوم لموقفه من الشك فى «المقال» الكتاب الأول، الجزء (Vii,iV) ، وفى بحث فى العقل البشرى الجزء Xii ، وموقفه يكاد يكون واحداً – يتشابه فى كلا العملين .

شكاً دجماطيقياً اعتقادياً ، لكنه يسمح بحياة عقلية خصبة «الطبيعة بضرورتها المطلقة التى لا يمكن السيطرة عليها، تجعلنا نتجه لأن نحكم ونتنفس ونشعر»[١].

ويذكر لنا هيوم أننا لا طاقة لنا بهذا الموقف الشكى الذى يتورط فيه العقل حين يتعمق ذاته ويفحص فى تحليل مستفيض عناصر تصوراته، هذا الموقف الشكى يتنافى مع حياتنا العملية التى تلزمنا بالاعتقاد والتسليم.

ويقر هيوم بأن الشكية التامة لا يتورط فيها أحد، وأن هؤلاء الذين اتخذوها حرفة يمكن أن يوصفوا بأنهم لاهون أو كاذبون[٢].

وهنا يوضح هيوم موقفه النقدى ورفضه للشك البيرونى* ويروى أنه يستحيل على الإنسان أن يبقى فى هذا الشك المطبق أو أن يصرح به فى سلوكه لبضع ساعات.

فشك هيوم إذن ليس شكاً مدمراً، بل هو شك إيجابى - إن صح التعبير- لم يصل إلى الحياة اليومية ، فهو يحيا ويعمل ويتحدث فى الشئون العادية للحياة[٣].

والمنهج الشكى مفيد حين يستخدم فى نطاق التجربة، نحن نمارسه فيما يتعلق بالطبيعة أو الأخلاق، ونجد فيه لذة كلما أتسع ما نكتسبه بالخبرة والعقل، ولكن عندما نتجاوز بنظرتنا الشئون البشرية وصفات الأجسام المحيطة بنا وننتقل بتأملاتنا إلى الأزل والأبد، إلى خلق العالم وتكوينه،

---

(1) Hume (From the ensyclopidia of ph. p85.84.

(2) Hume : Treatise . p193.

(3) Hume : by A. J. Ayer . p . 15-17.

(*) نسبة إلى بيرون (٣٦٠ ق.م) وهو وأتباعه ينكرون معرفة الأشياء فى حقيقتها ويتوقفون عن إصدار أحكام عنها.

إلى وجود الأرواح وصفاتها، إلى قوى روح كلية وعملياتها، روح كلية وجودها لابدء له ولا نهاية.. إلخ يلزم أن نتأنى بعيداً عن أبسط ميل للشك لا نلم به، ومن ثم فهو بعيد عن متناول ملكاتنا .

ويؤكد هيوم رفضه للشك المطلق فيقول :

«لئن لزم أن يكون للمبادىء الشكية الغلبة بصفة كلية قوية لتوقف فى الحال كل بحث وكل فعل، ولبقى الإنسان فى سبات تام»[١] .

«ثمة مبدأ – سواء فى النظر أو العمل – يقهر دائماً كل استدلال مجرد أياً كان، هذا المبدأ هو الطبيعة.

الطبيعة – فيما يقول هيوم – ستبدد الغيوم الشكية التى ليس فى مقدور العقل أن يتجنبها»[٢] .

ويقول أيضا فى كتابه المحاورات :

«ألا تذكر قول بيكون الرائع: القليل من الفلسفة يجعل الإنسان ملحداً والكثير منها يثوب به إلى الدين»

الشك إذن يستخدم فى نطاق التجربة، ولا يتجاوزها ، أما حين يكون الأمر بصدد الاستدلالات اللاهوتية، فهذه الموضوعات أوسع من أن نحيط بها ، وتعلو على قدرات عقولنا. يقول هيوم :

«إذا تصفحنا جميع الكتب التى فى المكتبات بعد اقتناعنا بهذه المبادىء، ماذا يجب أن نفعل ، فإذا تناولنا بأيدينا أحد كتب الإلهيات أو مذاهب المتيافيزيقا على سبيل المثال، فإننا سنتساءل : هو يحتوى هذا الكتاب على استدلال يتعلق بالكم أو العدد؟ كلا: هل يحتوى على أى استدلال تجريبى يتعلق بالوقائع أو الموجودات كلا ! إذن فالق به فى النار على الفور لأنه لا يزيد عن سفسطه وأوهام»[٣] .

---

(1) Hume : Enquiry . p160.
(2) Treatise : p.187.
(3) Hume : Enquiry. p165.

(٣) السببية

شرع هيوم بالبحث فى أصل الأفكار ونشأتها لأن العقل البشرى ليس شيئاً آخر إلا مجموعة من المعانى أو المعقولات[*].

ويرى هيوم أن الأفكار على نوعين : إنطباعات Impressions، ومعانى أو أفكار Thoughts or Ideas، ونتوصل إلى التمييز بينهما بمعرفة مقدار القوة والحيوية الذى يصحب كلا منهما فى الذهن. فالإدراكات التى تنطوى على مزيد من القوة والحيوية هى التى يسميها هيوم إنطباعات، ويدرج تحت هذا الاسم جميع إحساساتنا وعواطفنا وانفعالاتنا، فنحن نسمع أو نرى أو نشعر أو نحب أو نبغض، أو نرغب ونريد.. إلخ.

هناك إذن درجتان من الأفكار، مصدرهما واحد واختلافهما فى الدرجة، أما المصدر فهو الإحساس بالأشياء الخارجية المسماه عادة مدركات حسية Perceptions، وكذلك الإحساسات النفسية الباطنة.

هذا الإحساس المباشر أزهى وأبهى وأكثر حياة من تذكره بعد ذلك بعد إنعدام المصدر، كالرجل الذى يحس بألم من حرارة شديدة، ثم يسترجع الألم فى ذاكرته أو يتخيله قبل وقوعه.

جملة القول أن جميع مواد التفكير منتزعة من إحساسنا الداخلى أو الخارجى ، وأى فكرة تفسر على أنها ليست صادرة عن تأثير حسى ما ستكون بلا معنى[١].

(*) انقسم الفلاسفة من قديم حول أصل الأفكار هل هى مكتسبة أم فطرية أم أن بعضها فطرى والآخر مكتسب. وقد برزت هذه المشكلة فى القرن السابع عشر، وتزعم القائلين بالأفكار الفطرية «ديكارت» فى فرنسا وذهب جون لوك إلى شىء من ذلك ولكن على نحو آخر .
أما هيوم فقد رأى التخلى عن الآراء السابقة المنحدرة إلى تراث الفلسفة من قديم الزمان، والرجوع إلى العقل السليم فحسب .

(1) Enquiry p.27-89

ويذهب هيوم إلى أن الأفكار لا توجد قبل الولادة وإنما تنشأ من الانطباعات منذ أن يولد الإنسان.

هكذا يمكن تلخيص تجريبية هيوم فى نقطتين أساسيتين [١]:

١) كل أفكارنا وتصوراتنا تشتق من إنطباعات الإحساس أو الشعور الداخلى.

٢) الأمور المتعلقة بالواقع لايمكن إثباتها أبداً بالتفكير أولياً بل لابد من اكتشافها أو استنتاجها من التجربة وعلى هذا يستحيل إدراك أى شىء خلاف أفكارنا.

«إن أى قدر واهن من الفلسفة يعرفنا عدم إمكان استحضار عقولنا لأى شىء خلاف الصور والمدركات وأن الحواس هى المنافذ الوحيدة التى تدخل منها هذه الأفكار[٢].

ينتج عن هذا أن الأنساق الميتافيزيقية التى تخبرنا عن وجود الله، أصل العالم، أشياء أخرى تتجاوز الخبرة الإنسانية، ليس لها معنى، وحتى إذا كانت كذلك، فلا يمكن أن تظهر بوصفها صادقة[٣].

- يرى هيوم أن كل أفكارنا ليست سوى صور من انطباعات مستمدة من الإحساس، فماذا عن العلية ؟ وهل فكرة القوة أو الرابطة الضرورية لها انطباع حسى؟ هل هناك ترابط بين الأفكار؟ وما الذى يؤدى إلى هذا الترابط وما علاقة السبب بالمسبب؟

---

(1) All our ideas derived from impressions of sense or inner feeling. That is, We connot ever cenceive of things different in kind from everything in our experience.

- Amatter of fact can never be proved by reasoning apriori. It must be discovered in, or inferred from, experience.

(1) (2) Enquiry . p.160-161.

(3) Hume in the incyclopidia of ph. Vol 3.4. the origin of ideas.p.76.

من أين لنا العلم بالسببية ؟ أهو بالفطرة Apriori ، أو بمعنى آخر : هل هذا العلم سابق على التجربة أم مستمد من التجربة ؟

هذه كلها تساؤلات نحاول أن نجيب عليها من خلال بحث هيوم لمعنى السببية والذى يعد من أهم البحوث وأعظمها خطراً فى تاريخ الفلسفة لأنه يريد أن يهدم ما أصطلح عليه الناس أجيالاً متعاقبة.

معني العلية :

يرى هيوم – فى الفصل الرابع من كتابه بحث فى العقل البشرى – أنه : «يمكن تقسيم موضوعات البحث أو الموضوعات التى يبحث فيها العقل على نوعين : نوع يختص بالعلاقات بين الأفكار، والنوع الآخر يختص بالوقائع أو أمور الواقع.

النوع الأول يؤدى إلى نتائج لها يقين قاطع على نحو ما نرى فى الرياضيات، وهذا اليقين أو التوكيد يثبت إما عن طريق الحدس أو البرهان، وهو يعتمد على ما يقوم به الفكر دون الاستعانة بأى شىء موجود فى الكون.

أما الدراسة الخاصة بالنوع الثانى، أعنى أمور الواقع، فهى لا تؤدى إلى هذا اليقين القاطع، وإثبات صحتها لا يتم باتباع هذه الطريقة السابقة، إذ يعد نقيض كل واقعة من الوقائع أمراً ممكناً [١].

ويتساءل هيوم : «ما هى فكرتنا أو تصورنا عن العلة والمعلول؟ كيف أمكننا الاهتداء إلى معرفتنا بالأسباب وكيف تمكننا التجربة من اكتشاف الأسباب وعمل الاستدلالات؟

(1) Enquiry : p.40.

ويجيب على ذلك قائلا :

«سوف أخاطر بتأكيد عدم إمكان الاهتداء إلى معرفة هذه العلاقة اعتماداً على الاستدلالات القبلية، باعتبارها قضية عامة لا تسمح بأى استثناء.

أما مثل هذه المعرفة فإنها قد جاءت من التجربة وحدها، عندما نكتشف أن شيئاً بالذات يرتبط على الدوام بشىء آخر. فلا وجود لشىء يمكن أن يكشف عن كيفياته التى تظهر للحواس لا عن العلة التى أحدثته، ولا عن المعلولات التى ستنبعث منه، كما أنه ليس بمقدور عقولنا بغير عون من التجربة أن نستخلص أى استدلال يخص الوجود الحق وأحداث الواقع»[1].

فالتجربة وحدها - وليس البرهان المنطقى - هى التى تبين ما يحدث من تداعى بين حادثة وأخرى.

فما الذى يجعلنا نثق بأمور الواقع؟ الإجابة على هذا تدعونا إلى افتراض قيام رابطة بين واقعتين تتيح الانتقال من واحدة إلى أخرى. فسماع صوت فى الظلام يؤكد لنا وجود شخص ما. وهكذا فى جميع استدلالاتنا المستمدة من الواقع.

ومن الواضح - كما يقول هيوم - أن الأفكار حين ترتبط فى الذهن بعضها بالبعض الآخر إنما تخضع لقاعدة ونظام.

ويقوم الترابط بين الأفكار على مبادىء ثلاث :

التشابه Likeness ، التجاور فى المكان Contiguinty in space ، التتابع فى الزمان Successian in time ، والترابط المستمر بموضوعات

---

(1) Ibid : p.42.

متشابهة فى الخبرة الماضية ، والسببية أو الرابطة الضرورية Necessary connection.

ويؤكد هيوم أن الواقعة التى نكتشف بها العلاقات السببية ونؤسس أو نقيم الاستدلالات عليها هى ببساطة تتابع الأفكار، أو تداعى المعانى As-sociation of Ideas [١].

ولكن من ناحية أخرى حتى عندما تتوافر لنا تجربة تداعى نفس الأحداث هى وأحداث أخرى، فإن هذا لن يزودنا بأى معرفة حقة بالعلل أو الأشياء التى تعد عللاً لها، لأن مثل هذه التجربة لا تطلعنا على ما هو أكثر من سبق حدوث أرتباط فى الماضى بين بعض أحداث وأحداث أخرى، ولكنها لا تعرفنا أى شىء يؤكد النتيجة القائلة أن أية أحداث من نوع معين ترتبط بالضرورة بنوع آخر.

يجب أن لا يسمح للتجارب الماضية بأكثر من تقديم معلومات أو معطيات مباشرة وأكيدة عن الموضوعات الدقيقة فقط، وعن الفترات الدقيقة من الزمان التى تقع فى حدود معرفتها. ولكن هل هناك ما يدعو إلى امتداد هذه التجارب إلى الأزمنة المستقبلة، إلى موضوعات أخرى، بقدر ما نعلم لا تتماثل وهذه التجارب إلا ظاهرياً، والنتيجة التى تترتب على ذلك لا تبدو ضرورية من أية ناحية.

ما يهدف إليه هيوم هو أننا هنا إزاء فرض ليس باستطاعتنا أن نبرره عن طريق العقل، ولا عن طريق التجربة المباشرة، ومن ثم فإن جميع النتائج التى نتوصل إليها تبعاً لهذا الافتراض تقصر عن الاتصاف بصفة المعرفة وتقصر عن بلوغ اليقين الذى يعد شرطاً ضرورياً للمعرفة الحقة.

---

(1) Treatise . BK. I . Part III . Sec . XIV.

يقول هيوم : «لما كنا نستخلص نتائجنا عن العلل والمعلولات بالاستناد إلى تجارب الماضى، ولما كنا نعمل تبعاً لافتراض مؤداه وجود تشابه بين المستقبل والماضى، ولما كان ما ساقنا إلى ذلك ليس العقل، فلابد إذن من وجود مبدأ آخر قام بدور فعال هنا، هذا المبدأ - هو العادة أو العرف. فعند اقتران شيئين .. فإننا نقرر توقع أحدهما عندما يظهر الآخر، من تأثير العادة وحدها[١]، فكل نتائجنا التجريبية إذا كانت راجحة فهى تأتى من افتراض أن المستقبل متوافق مع الماضى، وهذا فرض لا يتأتى إلينا بخطوة منطقية ولكنه ينبع فحسب من العادة.

« ولما كنا قد وجدنا فى الكثير من الحالات أن عدداً أياً كان من الموضوعات كاللهب والحرارة والثلج والبرودة قد اقترنت فيما بينها، فإذا تكررت هذه الظواهر من جديد للحواس فإن الذهن يحمل بالعادة إلى توقع الحرارة أو البرودة وإلى الاعتقاد بأن كيفية كهذه توجد »[٢].

إذن فكرة الضرورة أو الرابطة الضرورية بين الأفكار تصدر نتيجة التكرار. فعند التكرار الطويل نجد أن الذهن قد تهيأ بواسطة العادة.

هذا التكرار للأمثلة يجعلنا نتصور رابطة بينهما. الأمثلة العديدة بين المتشابهات تفضى بنا إلى تصور القوة أو الضرورة.

فالضرورة طبقاً لهذا ليست إلا انطباعاً فى الذهن أو تهيؤ يجعلنا نستدل من موضوع على آخر. فتكرار فعل أو عملية خاصة يولد فينا نزعة خاصة إلى توقعه حين تجتمع الظروف المشابهة ، هذه النزعة لا نتساءل عن أصلها.

---

(1) Enquiry . Sec. Vii . Part1. P. 56-57.
(2) Treatise : P.115,190.

ويؤكد هيوم أنه لا الحواس الظاهرة ولا الحواس الباطنة تأتينا بانطباع يوحى بفكرة القوة أو العلاقة الضرورية، نعم إن مشاهد الكون دائبة التغير، يتبع شىء منها شيئاً فى تعاقب لا ينقطع، لكن هيهات لحواسنا أن تكشف عن القوة الخفية التى تدير هذه الآلة الكبرى من وراء ستار، فالصفات الظاهرة للأشياء والتى ندركها بالحواس، ليست بذاتها تدل على قوة وراءها بحيث تكون هى الأصل الذى استقينا منه فكرتنا عن القوة[1].

نحن ننتقل من المعلوم إلى المجهول لأننا قد ألفنا اتساقاً فى الطبيعة. ويذهب هيوم إلى أن هذا الألف أو هذه العادة إنما يرجع إلى الاقتران المطرد الذى يولد يسراً ينتقل به الخيال من فكرة إلى أخرى، ولكن هذا المبدأ (العادة) لا نزعم به أننا قد وقفنا على السبب النهائى، ولكن يظهرنا على مبدأ من مبادىء الطبيعة البشرية مبدأ نعرفه جيداً من آثاره، ولكن لا نستطيع أن نأتى بعلة لهذه العلة، نكتفى باعتبارها المبدأ النهائى الذى يمكننا أن نستبينه من نتائجنا التجريبية.

وهذا هو السبب فى أن الفلاسفة مهما أوتوا من نفاذ العقل لم يستطع أحدهم أن يهتدى إلى السبب الأقصى فى أى عمل من أعمال الطبيعة.

لقد باعدت الطبيعة بيننا وبين أسرارها، ولم تكشف لنا إلا عن المعرفة الظاهرة للأبصار، ثم إن حواسنا تخبرنا عن صفات الأشياء. وعلى الرغم من جهلنا بالقوى الطبيعية إلا أننا نستبق الحوادث، ونتوقع نتائج مماثلة مما سبق أن شاهدناه.

- نحن إذن نقيم الأسباب والمسببات على أساس التجارب السابقة،

---

(1) Enquiry : P61-65.

ولكن بأى حق نحكم على المستقبل بما شاهدناه فى الماضى؟

فليس التماثل دليلاً موجباً لاستنباط النتائج، كما أن التماثل بين الأشياء الموجودة فى الطبيعة ليس تاماً. فالبعض متفق فى مظهره وصفاته الخارجية، ولكنك تجد تفاوتاً فى طعمه.

ويذكرنا هذا المثال الذى يضربه هيوم بما قاله ليبنتز عن مبدأ هوية اللا تمايزات حيث قال أنه لا توجد ورقتان فى شجرة واحدة فى غابة واحدة، متماثلتين تمام التماثل.

إننا نفترض أن المستقبل سوف يقع على نسق الماضى، ولكن ما الحال لو تغير الكون واختلف نظام الطبيعة؟ عندئذ لا يصلح الماضى أن يكون قاعدة للحاضر أو المستقبل(١).

فالسببية من المعانى التى لا تدرك بالحس، وليس من المنطق أن يستنتج من تعاقب حادثتين أن أحدهما عله والأخرى معلول.

وإذا كان الغزالى فى كتابه «تهافت الفلاسفة» قد أراد أن ينفى الأسباب فذلك حتى لا يكون إلى جانب الله علة مؤثرة فى الكون. فالله هو سبب الأسباب جميعاً وهو علة العلل.

أما هيوم فهو ينفى السببية، ولا يجعل الله علة الأشياء. لقد اعترض هيوم على مالبرانش الذى يذهب إلى أن «الله هو علة كل صغيرة وكبيرة، وما الأسباب الظاهرة إلا مناسبات Occasions لعلة الله.

ويظهر أن هيوم لديه بعض الشكوك أو الاعتراضات حول صحة هذا البرهان (القوة أو الرابطة الضرورية) .

---

(1) Hume : A.J.Ayer. ch. iv. cause and effect. p.56-74 Treatise. p.139.

(١) يبدو أن السبب فى اختلاط الأمر على الفلاسفة هو عدم تحديد المصطلحات التى تجرى فى قاموس الفلسفة، ثم يترتب على ذلك اللبس والغموض.

ومن هذه المصطلحات، القوة، الرابطة الضرورية، أى ارتباط الاسباب بالمسببات.

فأى حديث عن القوة ، الفاعلية ، الطاقة ، القوة ، أو الضرورة التى تتضمن وجود شىء ما فى السبب، سواء مادى أو روحى، طبيعى أو خارق للطبيعة، هى بلا معنى محقق [١].

(٢) الواقع أن أغلب الناس لايجدون صعوبة فى تعليل الظواهر المألوفة فى الطبيعة مثل سقوط الأجسام، ونمو النبات وتناسل الحيوان، وهم لطول عهدهم برؤية هذه الظواهر يألفونها ولا يتوقعون غيرها، ولا تستطيع عقولهم أن تتصور حدوث ظواهر مخالفة عن الأسباب المزعومة حتى إذا صدمتهم الطبيعة بما فيها من شذوذ كالزلازل والبراكين وسائر الخوارق، عجزت العقول عن التعليل والتمسوا الأسباب فى قوى غير منظورة أو قالوا : إنها من عند الله* .

---

(1) Any Talk of power, efficacy, energy, force, or necessity which implies that it is something existing in the cause, wheather material or spritual, natural or super- natural, is pronounced meaningless. (treatise BK.IportIII . Sec.X.V.)

(*) إننا إذا كنا نجهل القوة الحقيقية التى تسبب ما بين الأجسام من تفاعل، فنحن أشد جهلا بالقوة التى تسبب التفاعل بين العقل والجسم أو بين الجسم و العقل. فليس فى إدراكاتنا الحسيه ولا فى مجرى شعورنا الباطنى ما يدلنا على تلك القوة السببية. والنتيجة هى أن الله هو السبب المباشر الذى ينتج العلة بين العقل والجسم، فإذا رأيت بعينيك شيئاً، فلا تقل إن حاسة البصر منك هى التى أحدثت ما قد حدث فيك من إحساس بصرى، بل قل إنها إرادة الله القادر على كل شىء والخالق كل شىء، فهو الذى أثار فيك ذلك الإحساس، وكذلك إذا عزمت بإرادتك أن ترفع ذراعك ثم رفعتها، فلا تقل – من وجهة نظر هؤلاء – إن الإرادة سبب إحداث رفع الذراع ، بل قل إنه الله الذى شاءت إرادتيه أن ترتفع ذراعك فى تلك اللحظة. ولا يقف هؤلاء الفلاسفة عند حد الإحساس والإرادة، بل يجعلون الله كذلك سبباً فى أى فكرة تمثل فى العقل، فما أفكارنا إلا وحى يوحى به من عند الله[١].

وهنا يشير هيوم إلى ديكارت ومالبرانش

(1) Enquiry P.55 : P.70-71.

ديفيد هيوم – زكى نجيب محمود . السببية ص٨٣/٩٤

(٣) قد يقال : لابد من وقفة نحلل فيها هذه القوى الباطنية المزعومة، كقوة الإرادة مثلا : أعنى قدرتها على تحريك أعضاء البدن. وأول ما نقرره هنا هو أن تأثير الإرادة فى هذا لا سبيل إلى إدراكه إلا إذا مارسناه بأنفسنا وأصبح بهذه الممارسة خبرة من خبراتنا.

(٤) ماذا عن العلاقة بين النفس والجسد أو وحدة النفس والجسد والصلة بينهما.

يرى هيوم أننا لو أدركنا العلاقة بين الفعل الإرادى من جهة والجانب الجسدى من جهة أخرى لاستطعنا أن نحل لغز من أعقد وأعمق ما يصادفنا فى الطبيعة كلها من ألغاز.

فاتصال النفس بالجسد مازال من المسائل الشديدة الغموض إذ يقال أن هناك جوهراً روحانياً يؤثر فى الجسم المادى وهذا الجوهر الروحانى أو النفسانى قبل كل شىء يحتاج إلى إيضاح [١].

(٥) نحن لا نستطيع أن نوضح لماذا نحرك بعض أعضاء أو أجزاء الجسم ونعجز عن تحريك بعضها الآخر.

لماذا يكون للإرادة قدرة على تحريك اللسان والأصابع ولا يكون لها نفس القدرة على تحريك القلب والكبد؟

الخلاصة أننا ليس لدينا وعى بأى علاقة للقوة بين ممارسة إرادتنا لها، وأن الترابط بين الأشياء هو فى الحقيقة يرجع إلى العادة وليس اكثر من ذلك [٢].

– وما قلناه عن الإرادة فى تحريكها لجزء من أجزاء البدن نقوله

---

(1) Hume : A . J . Ayer. P.83.
Enquiry . P.64-65.
(2) Ibid. P.75.

أيضاً عن الإرادة واستحداثها لفكرة معينة. فكما أن الإرادة فى استحداثها لحركات الجسد محدودة بحيث يمكنها تحريك بعض الأعضاء دون الآخر، فكذلك الإرادة فى استحداثها للأفكار فى الذهن محدودة، يمكنها أن تستحضر هذه الفكرة، ولا يمكنها أن تستحضر تلك وذلك لعلة لا ندريها.

كذلك نلاحظ أننا فى بعض الحالات دون بعضها نكون أقدر على استحضار الأفكار، فى الصحة دون المرض، فى حالة هضم الطعام منه فى حالة التخمة، فهل يستطيع أحد أن يدلنا على علة هذا كله غير معتمد على خبرته؟

إذن فالخبرة وحدها هى المصدر الذى نستقى منه العلم دون أن نعلم شيئاً قط عن علاقة ضرورية تربط بينهما ربطاً محتوماً يجعل الطرف الأول وحده كافياً للدلالة على أن الطرف الثانى سيتبعه [١].

ثمة ملاحظات يمكن أن تطرح بالنسبة لتصور هيوم لمفهوم العلية.

أولاً : يزعم هيوم أن العادة أو العرف هو الذى يؤدى إلى ترابط فكرتين أو اقتران أحدهما بالآخر. فهل هذه الحجة كافية بالفعل لتبرير هذه النتيجة، وهل العادة هى البديل الوحيد لتبرير مقولة العلية أم أن هناك بدائل أخرى لم يشملها بحثه، ولهذا فإن النتيجة التى استخلصها لن تكون ضرورية؟

ثانياً : حتى لو أصاب فى زعمه بأن العادة وحدها هى التى تسوقنا إلى توقع حادثة ما عند ظهور حادثة أخرى، فإن ما يترتب على ذلك لن يكون بالضرورة عدم وجود أشياء أخرى يمكن أن تقال عن معنى العلية أكثر من ذلك.

---

(1) Ibid. P.68

ثالثًا : كيف ننظر إلى فكرة العلية إذا سلمنا أننا لن ندرك قط أى ارتباط ضرورى بين أية حادثتين نلاحظ إقترانهما سوياً فى تجربتنا؟

يقول هيوم :

«إن هذا الارتباط الذى نشعر به فى العقل، وهذا الانتقال المألوف الذى يقوم به الخيال من شىء ما، إلى ما يصحب هذا الشىء عادة، هو الشعور أو التأثير الذى يساعدنا على تكوين فكرة القوة أو الارتباط الضرورى، وليس هناك تفسير أبعد من ذلك [١].

رابعًا : يؤكد هيوم أننا لا نستطيع الاهتداء إلى معرفة العلاقات أو الرابطة بين الأفكار اعتماداً على استدلالات قبلية، ويؤكد أن هذه العلاقات جاءت عن طريق التجربة وحدها، ثم يعود فيقول أن التجربة حتى عندما تتوافر فهى لن تزودنا بمعرفة حقة بالعلل أو الأشياء التى تعد عللاً لها استناداً إلى أن المستقبل قد لا يتفق مع الماضى.

«نحن نقيم الأسباب والمسببات على أساس التجارب السابقة لكن بأى حق نحكم على المستقبل بما شاهدناه فى الماضى؟

إننا نفترض أن المستقبل سوف يقع على نسق الماضى ، ولكن ما الحال لو تغير الكون واختلف نظام الطبيعة ... ؟

كذلك تكرار أى فعل أو عملية خاصة إنما يولد فينا نزعة خاصة هى أشبه ما تكون بالغريزة ، أليس هذا بحاجة إلى تفسير ؟

خامسًا : عندما نقول ... إن شيئاً ما ارتبط بشىء آخر فإن ما نعنيه هو أنهما قد اكتسبا ارتباطاً فى فكرنا وهذه نتيجة ربما تبدو غير مألوفة نوعاً، ولكنها تستند إلى دليل كاف».

---

(1) Enquiry : P.86.

أجل لقد أصاب هيوم.. فهذه النتيجة تبدو غير مألوفة نوعاً وهذا أقل ما يمكن أن يقال عنها، لأنها تعنى النظر إلى تصور الارتباط الضرورى بين حادثتين على أنه شيء ذاتى بحت مستمد من ارتباط نشعر به بحكم العادة فحسب.

وبالتأكيد فهذا ليس ما نعنيه عندما نذكر «العلية» كارتباط بين الأشياء.

- ومن ناحية أخرى : هل النتائج التى اهتدى إليها هيوم قد استندت - كما يزعم - إلى دليل كاف؟

مفهوم العلية ليس كما أقر هيوم مستنسخ من مدرك حسى، ولعل هذا ما استنتجه كانط وكان من العوامل التى ساقته إلى اتخاذ موقف مختلف.

الفصل الثانى

الدين فى ضوء المنهج التجريبى



الدين فى ضوء المنهج التجريبى

تمهيد :

توفى هيوم فى الخامس والعشرين من أغسطس ١٧٧٦، ودفن بعد موته بأربعة أيام، وقد تحدث عنه كاتب سيرته E.C.Mossnar قائلا: «تجمع حشد كبير فى شارع ديفيد ليشاهدوا جنازته، فعلق أحد الحاضرون: إن هيوم كان ملحداً Atheist ، فرد أخر لا يهم فقد كان رجلا أميناً وشريفاً [١].

وإذا أريد بالإلحاد عدم الإيمان بالله أو الشك العقلى فى وجوده، فهيوم ليس ملحداً بهذا المعنى، لأن الوجود الإلهى أمر ناشىء عن الوجدانات الفطرية ولا شأن للعقل به، وكل ما يفعله العقل هو أن يثبت لله هذه الصفة أو تلك دون أن يمس وجوده، وهذه الفكرة هى مدار النقاش فى كتاب هيوم الرئيسى عن الدين «محاورات فى الدين الطبيعى» .

ومن ناحية أخرى يمكن النظر إلى هيوم باعتباره ملحداً بالمعنى المسيحى، لأنه يصرح كثيراً أنه لا يعترف بالمسيحية أو بالخرافات المصاحبة لها، ورغم هذا فلديه نوعاً ما من الاعتقاد الدينى.

هكذا تواجهنا مشكلة موقف هيوم من الدين، هل هو موقف الشاك أم المعتقد : موقف اللاارادية أم موقف التأليه، فكتابات هيوم فى هذا الموضوع يعتريها الغموض، وبها مزيج من السخرية والحذر ويكفى أن كتابه «المحاورات» لم ينشر إلا بعد وفاته.

وتوضح السيرة الذاتية لهيوم إلى أى مدى عداءه للدين المسيحى فقد

---

(1) Hume (D) : Asmposium : by : Stuart Hampshire. Edited by : D.F Pears. London. N.Y.1963. (Hume: On Religion p.77:88).

كان يرفض العقائد المسيحية، وأعلن الإنشقاق عن هذه المعتقدات التى ورثها عن أسرته فى مرحلة الصبا، كما أعلن صراحة فى خطاباته أنه لن يعود إلى أى صورة من صور المسيحية، كما أكد مرة أخرى حين وفاته عدم ولائه للمذهب الأرثوزكسى والحياة الآخرة أمام Boswell ، الذى حاول إقناعه بالعدول عن آرائه وإعادة النظر فيها مرة أخرى دون جدوى. وفى محادثاته الخاصة استخدم كلمة «المسيحية» كتعبير معتدل عن التعسف أو المبالغة Abuse و فى عام ١٧٦٥ وصف الإنجليز بأنهم ينتكسوا سريعاً فى أعمق درجات الغباء : «المسيحية» ، «الجهل» .

على أية حال فقد كان هيوم - فى حياة الصبا - ضد الدين Anti - clerical برغم صداقته لقساوسة أدنبرة فيما بعد [١] .

يتحدث هيوم عن الدين فيقول :

«إننا لا نستطيع أن نخترق أسرار القوى الطبيعية لأننا جاهلون تماماً بالطريقة التى يعمل بها العقل السامى سواء بالنسبة لذاته أو للعالم، كما أننا لسنا على وعى بهذه القوة فى ذاتنا كى ننسبها إلى كائن أسمى ليس لدينا عنه أدنى فكرة.

وفى كتابه «بحث فى العقل البشرى» أوضح فى فصل عن المعجزات أنه لا يمكن تبرير الاعتقاد فى المعجزات، لأن العقل المجرد غير كاف لإقناعنا بصدق المعجزة وحقيقتها. من يتحرك بالاعتقاد فقط ويؤمن به، فإن هذا سيؤدى إلى تدمير كل مبادىء الفهم لديه، ويجعله يذعن دائماً إلى ما هو مخالف للعرف والتجربة» [٢] .

---

(1) Ibid : p.80.
(2) Hume : Enquiry. ch. X. P.131

فيما يتعلق بنقد هيوم للدين نود أن نشير إلى نقاط هامة:

أولاً : النقد هنا لا ينصب على المسيحية كدين ، ولكن على كونها مرتبطة بكم هائل من الأعاجيب والخرافات والمعجزات. هجوم هيوم ليس ضد الدين بقدر ما هو هجوم على الخرافة والمعجزة بوصفها أساساً للنسق الدينى.

ثانيًا : عدم الاعتماد على البرهان العقلى كأساس لمعرفة الدين، لأن القضايا الدينية السبيل إليها ليس البرهان، بل الاعتقاد أو الإيمان، وقد تأثر كانط فى هذا . بفيلسوفنا، فأفسح المجال للاعتقاد الدينى بدلا من البرهان العقلى.

Removing reason to make room for faith

ثالثًا : شكوك هيوم حول الدين لا تتعلق بوجود الله - فهذا أمر بديهى - ولكن حول طبيعته .

«إذا ارتكنا إلى الفهم الإنسانى وما يتصف به من ضعف سيتعذر علينا التعرف على طبيعة الله، وسنرى أن معرفتنا لها أمر عسير، ومن ثم فبينما نرى أن الله يتسم بالكمال - بالتأكيد - فإن كل ما فى وسعنا أن نفعله هو الإعجاب بكماله اللامتناهى، الذى ليس باستطاعتنا التحقق منه قط. ومن العبث أن نبذل جهداً فى هذا السبيل»(١).

«علينا ألا نتخيل أبداً أن بمقدورنا أن نفهم صفات الكائن الإلهى أو نفترض أنه يتماثل أو يتشابه فى صفات الكمال التى تنسب إلى أى مخلوق بشرى (٢).

(1) Hume : Dialogues concerning natural religion. ch. II. P.138.
(2) Ibid : P.142.

التاريخ الطبيعى للدين Natural History of Religion

يعرض هيوم لرأيه فى الدين فى مؤلفين رئيسيين هما :

التاريخ الطبيعى للدين، محاورات فى الدين الطبيعى. بالإضافة إلى مقال عن المعجزات ، فى الفصل العاشر من كتابه «بحث فى العقل البشرى».

ويعرض الكتاب الأول لتاريخ الدين، ويحاول الإجابة على هذا التساؤل.

أيهما أسبق : مذهب الشرك (التعدد) أم مذهب التوحيد ؟

ويرى هيوم أن مذهب التعدد هو الأسبق زمنياً كما أنه الأفضل عن مذهب التوحيد – فيما يتعلق بالمذاهب الدينية المتعددة.

نشأ مذهب التعدد – فيما يرى هيوم – نتيجة لعدم وعى البشر وجهلهم بالأسباب الطبيعية، وخوفهم من الظروف المختلفة المحيطة بهم، الطبيعة وأسبابها المجهولة، ظواهرها الغير مفهومة، الكوارث الطبيعية كالزلازل ، العواصف ، الأمراض ، وما إلى ذلك... كل هذه الأمور أدت إلى خلق وسطاء بين الطبيعة وبين البشر كالقوى الخفية، الآلهة ، وغير ذلك.

وهنا ينقد هيوم بعض مفكرى المسيحية الذين يفترضون أن الإنسان الأول – البدائى – كان على وعى بأن الكون قد وجد عن طريق منظم أو خالق واحد، لأن مذهب التوحيد جاء فى فترة زمنية لاحقة، وحينما عرف الناس الإله الواحد وجدت الأسباب أو البراهين الدالة على وجوده كالقصد أو النظام أو الغائية .

– ينسب هيوم أصل الاعتقاد الدينى إلى جهل البشر بالأسباب

الطبيعية وإلى الأمال والمخاوف المستمرة التى تحرك العقل البشرى، وذلك لأنه من أجل تبرير هذه الآمال، تبديد هذه المخاوف لابد من افتراض كائنات تبدو مشابهة للبشر أو ذات طابع إنسانى، ولكنها ذات قوة أعظم.

– ولكن هيوم – رغم هذا لا يعلن رفضه للدين، بل إنه يعترف فى «التاريخ الطبيعى للدين» ، وفى مواضع أخرى من كتاباته أنه يقبل البرهان الغائى [1].

ويعتقد هيوم أن مذهب التعدد لا يتميز بأنه أسبق أو سابق على التوحيد فقط، بل إنه الأسمى... لماذا ؟

يجيب هيوم على ذلك بقوله :

(١) إن التعدد أكثر تسامحاً من التوحيد. فالإغريق والرومان على سبيل المثال كانوا أكثر ميلا إلى استيعاب آلهة الشعوب الآخرى.

أما التوحيد فهو لا يميل إلى التسامح، بل إلى التعصب أو المذهب المطلق Absolutism .

(٢) مذهب الشرك أو التعدد أقل ضغطاً على العقل البشرى.. كيف؟ مذهب الشرك ليس أكثر فهماً، بل – على العكس – هو مزيج كامل من الأساطير المتناقضة والخرافات الباطلة، ولذلك فهو لا يعترف بأى محاولة جادة للتعقل أو الفهم. أما مذهب التوحيد فهو يحفز البشر أن يتفهموا الدين أو يحثهم على جعل الدين يبدو عقلانياً، ومحاولة خلق نسق فلسفى ولاهوتى، وهذا سيؤدى إلى إيجاد ضغط على العقل.

«الإنسان سيقاد إلى طريق لا نهاية له من التعقل المزيف الذى سيوصف بأنه الأسوأ، لأنه أكثر فساداً وخداعاً من الفوضى البدائية للشر».

---

(1) Hume : By A.J.Ayer. P.92.

يفرق هيوم بين طبقة العامة (السوقية) وطبقة المثقفين (الحكماء) ليرى أن لكل طبقة دينها الخاص. فالعامة يؤمنون بالتعدد أما الحكماء فيؤمنون بالتوحيد لأن الحكماء أكثر تعقلا وفهماً للدين من العامة. وهنا أيضاً قارن بين الخرافة عند أصحاب المذهب التعددى، التعصب لمذهب واحد عند أصحاب مذهب التوحيد.

الخرافة هى مزيج من المعتقدات الأسطورية، وهى تشكل خطراً أقل على العقل، أما التعصب الدينى أو الحماس المفرط لدين معين كالمسيحية، فهو مهلك تماماً، لأنه يؤدى إلى الاضطهاد Perseution، التعذيب، الكراهية، عدم الإدراك.

وقد اعترف هيوم بأن قوة الدين قد تؤدى إلى الحب والإحساس أو تحث الناس على ذلك، ولكن من منطلق أخلاقى، فالبشر لديهم ميل طبيعى نحو التعاطف والإحسان وعمل الخير كل هذا ليس بسبب الدين، ولكن لكونهم بشر[1].

شكوك حول الدين الطبيعى

يقول هيوم: «إننى لا أعلم عن العالم الخارجى إلا ما فى ذهنى من المدركات الحسية، فبأى حق أتعدى حدود علمى وأزعم أن ما فى الكون من أشياء حقيقية تقابل هذه المدركات الذهنية؟ لعل مرجع ذلك هو الوهم الذى ينشأ عن طريق العادة، فنحن حين نلاحظ فى أذهاننا أفكاراً واضحة نتوهم أن لها مقابلا فى العالم الخارجى، وهو خطأ واضح أو هو على الأقل تصور لا يقوم عليه دليل. كما أن دعوى أن لهذا الكون إلهاً ليست هى الأخرى أكثر من افتراض خيال.

(1) Stuart Hamp.Shire. D. F. Pears: Hume: Asymposium-ch. VII. On Religion: P82:84.

إن أقوى ما عرفته البيئة الفلسفية فى هذا المجال الخاص بالألوهية ثلاث براهين مختلفة كل منها لا يثبت لحظة أمام التمحيص الواعى والنقد البصير.

ويرى هيوم أنه فيما يتعلق بقضية الألوهية هناك تصوران:

«إما أننا لا نعلم شيئاً عن وجود الله وطبيعته أو ليس لدينا معرفة بهذا الوجـود، وهنا ليس ثمـة مـا يدعـونا إلى البـرهان. أو أن نكون على علم بوجوده، أو على الأقل ندعى أن لدينا مثل هذا العلم، وهنا لابد من البرهان لتأسيس هذا العلم، فماذا يكون البرهان؟

البرهان على هذا يقوم على ثلاث حجج :

(١) النظام أو الغائية (٢) السببية (السبب الأول) (٣) المعجزات

والفحص النقدى لدعاوى الدين الطبيعى سيقودنا إلى فحص نقدى لهذه الحجج الثلاث [1].

وسنعرض فى هذا الفصل للبرهان الأول والثانى والرد عليهما - برهان الغائية ، برهان السببية - أما البرهان القائم على المعجزات فسنعرضه فى الفصل الثالث .

(١) برهان الغائية أو النظام Argument From Design*

خلاصة هذا البرهان هو افتراض أن الله صانع هذا الكون على أساس أن لكل مصنوع صانعاً. ولكن هذا الافتراض يؤدى إل محال، فالمقايسة

---

(1) Alburey castell : An introduction to modern philosophy in eight philosophical problems. section2.
Hume David: Doubts about Natural theology p.19-20.

(*) هذه القضية هى مدار النقاش فى «المحاورات فى الدين الطبيعى» حيث يدور الحوار بين ثلاث أشخاص : ديميا ، كلينث ، فيلو . Dema . Cleanthes , Philo

=

بين الله والصانع الإنسانى تقتضى أن يكون الأول قد صنع العالم بيديه كما يفعل المقيس عليه (أى الإنسان). ومن جهة أخرى لا يمنع إحتمال أن يكون قد تعاون فى صنع هذا العالم عدة آلهة على نحو ما يقع فى إقامة عمارة مثلاً. وفيما يلى تفصيل ما أوجزناه.

يتفق كل من ديما، فيلو معاً على الإنسان يستحيل عليه أن يعرف عن طبيعة الله شيئاً مستعيناً بعقله وحده، أما كلينث فلا يوافقهما على ذلك فيقول أن الإنسان بمقدوره – مستعيناً بعقله – أن يقيس طبيعة الله على طبيعة الإنسان لما بين الطبيعتين من تشابه. فالعالم كما تشهده أبصارنا دال

= (١) ديما يعتقد أن وجود الله يمكن معرفته بطريقة أولية Aprior i، رغم أننا غير قادرين على اختراق غموض طبيعته. وهو يمثل رجل اللاهوت فى رفضه أن يخضع موضوع الدين للعقل وتحليلاته. فوجود الله مؤكد بالإيمان أما طبيعته مجهولة لنا.

(٢) كلينث: الذى يقول أنه لا يوجد أى برهان آخر على وجود الله إلا ما نستنتجه من ملاحظتنا للعالم، وبالتالى يبنى اعتقاده فى وجود الله على ما يمكن تسميته بالبرهان من النظام أو البرهان الغائى.، فهو يؤمن بقدرة العقل فى الوصول إلى الحق مادام يحصر نفسه فى حدود الخبرات البشرية وتأويلها وهو يقدم لنا هذا الدليل العقلى على معرفتنا به عن طريق التشابه أو المماثلة بين الله ومخلوقاته أو بين الطبيعة ومدبرها.

ويرى كلينث أن موقف الشك الشامل فى قدرة العقل مرفوض من أساسه لأنه مستحيل. فحتى صاحب الشك نفسه تراه يتصرف فى شئون حياته بما ينفى عنه الشك فى كل شىء كما يدعى، لهذا بدلا من الشك ينبغى أن نبحث فى قدرة العقل فى كل موقف جزىء على حدة. وعندئذ سيتبين لنا إن كان عاجزاً فى بعض المواقف، فهو قادراً فى بعضها الآخر.

(٣) فيلو: الشاك، الذى لا يؤمن بالعقل فيعترض على آراء كلينث ويقدم الرد عليها [(١)].

ويأتى التساؤل: من يمثل هيوم من هؤلاء الأشخاص الثلاثة؟ من المرجح جداً أن آراء هيوم تجرى على لسان كلينث الذى يجعل للعقل حق البحث فى خصائص الله، أما عن وجوده فهذه مسألة لا يستطيع الإنسان بحكم طبيعته المحدودة الوصول إليها.

والسؤال كما يقول فيلو لا يتعلق أبداً بالكائن، لكن فقط بطبيعة الألوهية[(٢)].

(1) Hume, D: Dialogues concerning Natural Religion. Introduction (From : Hume by A.J.Ayer. P.92-9.)

(2) Hume, D: Dialogues. P.142.

على أنه يسير على خطة مرسومة ، وهو فى هذا شبيهه بآلة يصممها الإنسان ويرسم لها طريق سيرها فيعد أجزاءها بحيث يلائم بعضها بعضاً لتتعاون على أداء ما أريد منها أن تؤديه .

وإذن فما دامت صفة الله شبيهة بصفة الإنسان من حيث توافق الأجزاء والسير إلى غاية منشودة، فمن المعقول أن تهتدى على أساس التشابه والتماثل إلى خصائص الله مستنتجة من خصائص الإنسان .

وعلى هذا يمكن أن نقدم برهاناً يستند إلى التجربة أو بعدياً aposteri-ori يعتمد على المماثلة أو المشابهة بين العقل الإلهى والعقل أو الذكاء البشرى .

وقد صيغ هذا البرهان فى عدة مواضع من المحاورات [١].

* « أنظر حول العالم، تأمل العالم كله وكل جزء فيه، سوف تجد أنه ليس اكثر من آله عظيمة ، قد قسمت بدورها الى عدد لا متناه من الآلات الأصغر، ثم إلى الأكثر صغراً، مما لا يستطيع الحس البشرى ملاحظتها أو توضيحها، هذه الآلات التى لا حصر لها، وأجزاءها الدقيقة قد توافقت فيما بينها وبدقة شديدة تبعث على الدهشة وتدعو إلى الاعجاب لكل من يتأمل هذا التوافق العجيب بين الوسائل والغايات فى جوانب الطبيعة ككل يماثل بدقة – تتجاوز أو تزيد – عمل الإختراع أو التدبير ، الفكر ، الحكمة ، الذكاء الإنسانى .

لهذا حيث أن النتائج تشبه بعضها البعض، فإننا نستنتج ، عن طريق كل قوانين التشابه أن الأسباب أيضاً تتشابه، وأن خالق أو موجد الطبيعة هو بطريقة ما يشبه العقل الإنسانى، رغم كونه يملك قوى أعلى تتناسب مع

(1)Hume(D):Dialogues:p.143,144,148,149,156,162,168,169,170,177,178,183,185,...190.

عظمة العمل الذى يوجده .

بهذا البرهان البعدى، وبه وحده ، نحن نثبت فى الحال وجود الله ، ومشابهته للعقل والذكاء البشرى . *

هذا البرهان الذى عرضه هيوم فى كتابه المحاورات يبدو أنه يتفق

---

* Look round the world [he says]: Contemplate the whole and every part of it: You will find it to be nothing but one great machine,subdivided into an infinite number of lesser machines, which again admit of subdivisions, to a degree beyond what human senses and faculties can trace and explain. All these various machines, and even their most minute parts, are adjusted to each other with an accuracy, which ravishes into admiration all men, who have ever contemplated them. The curious adapting of means to ends, throughout all nature, resembles exactly, though it much exceeds, the productions of human contrivance; of human design, thought, wisdom, and intelligence. Since therefore the effects resemble each other, we are led to infer, by all the rules of analogy, that the causes also resemble; and that the Author of nature is somewhat similar to the mind of man : though possessed of much larger faculties, proportioned to the grandeur of the work, which he has executed. By this argument a posteriori, and by this argument alone, we do prove at once the existence of a Deity, and his similarity to human mind and intelligence. (d 143)

مع مـا جـاء به تومـا الأكـوينى فى البـرهان الخـامس على وجـود الله ، والمعروف ببرهان النظام *

نقد الدليل :

---

* كتب الأكوينى يقول : « نحن نرى أن الأشياء التى ينقصها العقل أو الذكاء، مثل الأجسام الطبيعية، تعمل من أجل غايه، فهى تعمل بنفس الطريقة للحصول على أفضل النتائج. لذلك فمن الواضح أنها تعمل ليس بطريق الصدفه، لكن بطريق المخطط أو على أساس سابق، من أجل تحقيق غايتها. والآن ما ينقصه الذكاء أو العقل لا يستطيع أن يتحرك نحو غايه ما لم يكن موجهاً بواسطة كائن ما يملك هذا الذكاء والعقل، تماماً مثل السهم الذى يتجه إلى مكانه الصحيح عن طريق من يصوب هذا السهم، الخلاصة أنه لابد من وجود كائن عاقل مدبر، عن طريقه تتجه كل الأشياء الطبيعية إلى غايتها، هذا الكائن هو الله . (١)

(1) Aquinas (2). pt. Ia.q2.A3.vol I.p.26.7. Hume's ph. of belief. ch. ix. The Religious Hypothesis p.220.

" Aquinas writes, we see that things which lack intelligence, such as natural bodies, act for an end, and this is evident from their acting always or nearly always, in the same way, so as to obtain the best result. Hence it is plain that not fortuitously, but designedly, do they achieve their end. Now what ever lacks intelligence cannot move towards an end, unless it he directed by some being endowed with knowledge and intelligence; as the arrow is shot to its mark by the archer. Therefore some intelligent being exists by whom all natural things are directed to their end, and this being we call god.

وإذا نظرنا إلى هذا البرهان من الناحية التاريخية وجدنا أنه برهان شائع عام يقول به الرجل الساذج، كما يقول به الفيلسوف. ونحن نجده أولاً فى الكتب المقدسة بكل تفصيل ، ويكاد يكون أهم برهان، وقد قال به أرسطو من قبل، وهو مثل البراهين السابقة للقديس توما - يعتمد على فكرة السببيه أو العليه (١)

(*) برهان الحركة ، العليه ، التدرج فى الكمال، الممكن والواجب، برهان النظام .. كلها تفترض مفهوم العليه ، كما أنها تفترض أن الأشياء مرتبه ترتيباً تصاعدياً لو تتبعه الانسان فلابد أن يصل إلى القمه حيث يوجد المبدأ الأول للأشياء جميعاً .

هل يجوز الاستدلال القائم على التمثيل أم لا يجوز، هل يمكن أن نحكم على الله بما نحكم به على الإنسان ؟ هل يمكن تصوير العالم على غرار الآلة التى يصنعها الإنسان ؟ ولماذا لا يكون العالم مثلاً شبيهاً بالكائن العضوى فى تكامل أعضائه وفى نمائه ؟ لماذا لا يكون أشبه بالشجرة فى تكوينها منه بالآلة ؟ وإذا كان فى العالم نظام ملحوظ، فلماذا ننسب هذا النظام إلى كائن أسمى، ولا ننسبه لطبيعة المادة نفسها ؟ كل هذه تساؤلات يطرحها النقاش حول إمكانية المعرفة بطبيعة الله ، والهدف منها - فيما يرى هيوم - هو تفنيد البرهان القائم على المشابهة الموجهة بين الإنتاج البشرى والمنتج البشرى من الناحية الأولى ، والطبيعة وموجدها من ناحية أخرى .

١- يقول هيوم : البرهان من النظام هو البرهان القائم على المماثلة:

« نحن نفحص ساعة ، منزل ، سفينة ... الخ ، ثم نستنتج أن هذه الأشياء قد تمت صناعتها بواسطة موجودات تملك العقل والذكاء . لكن هل مماثلة الساعة مع صانعها تماماً مثل مماثلة الإله مع الكون ؟ هل الغائية واحدة فى كلا الحالتين ؟ هل المماثلة كلية وكاملة ؟

يجيب هيوم على هذا « أعتقد أن المماثلة ضعيفة بشكل ما » . ويستطرد هيوم فيقول :

« إذا رأيت منزلاً ، فإنك تستنتج أن له مهندساً أو بناءً » لأن هذا يمكن تجربته ، لكن هل العالم يشبه المنزل بطريقة قريبة تجعلنا نؤكد بنفس الدقة مبدأ المشابهة ؟ لابد من توافر الخبرة بالنسبة لأصل العالم .

« إذا رأيت أو فحصت سفينة فإنك تشكل تصور عظيم عن براعة البناء الذى صمم هذا العمل ، حينما تقرأ كتاب فإنك تصل إلى عقل وقلب المؤلف ... هنا يمكن بالخبرة أن يتكون شعور مباشر وتصور لهذه الأفكار

... هل يحدث هذا حينما تقرأ كتاب الطبيعة [١] ؟؟

النتيجة هى أن التشابه المزعوم بين الله والمخلوقات البشرية ينطوى على ضرب من الحط من شأن الموجود الأسمى لا يسع أى مؤمن صادق أن يطيقه . نحن لا نعلم إلا الجزء ، ولا نستطيع عن طريقه أن نصل إلى معرفة الكل .

ليس ثمة برهان على وجود الله ، وليس ثمة حجج مجردة ، ليس ثمة أدلة قبلية ، هذه الحجج كلها مغالطة وسفسطة - فيما يقول ديما - ومسألة وجود الله مسألة بديهية لا نزاع فيها ، ليس ثمة وجود لشئ دون علة ، والعلة الأصلية لهذا العالم هى الله ، وأن من يرتاب فى هذه الحقيقة ليستحق كل عقاب [٢] .

٢- ليس فى وسعنا أن نقوم بهذه المقارنة بصدد الله ، فطرائقه ليست طرائقنا ، وصفاته كاملة ولكنها غير مفهومة ، وكتاب الطبيعة هذا ينطوى على لغز عظيم مستعصى التفسير .

نتيجه لهذا ، فالعالم بعيد التماثل هو والبيوت والسفن والأثاث والماكينات ، ولعل هذا التفاوت الكبير يحول دون عقد أية مقارنة أو استدلال .

كذلك فإن عوامل مثل الفكر والتصميم والذكاء لا تزيد عن كونها جانباً من جوانب مصادر الكون ومبادئه الخاصة . ومن غير المشروع الاستناد إلى ما يحدث فى جانب واحد من الطبيعة واعتباره مماثلاً لباقى

---

(1) Aiburey castell : An introduction to modern philosophy in eight philosophical problems. section II.
Hume David: Doubts about Natural theology p.24-26.

(2) Hume. D: Dialogues: ch.II. P.148.

الجوانب وأساساً لحكمنا على أصل الطبيعة فى جملتها. وليس لدينا أية تجربة على الإطلاق تخص ما يدعى أصل العالم وهذا دليل على عمق الاختلاف فى الحالتين[١].

٣- على فرض موافقتنا على هذا البرهان ، على أساس أن النتائج المتشابهة هى لأسباب متشابهة ، فمازال بغير استطاعتنا تبرير استنتاج أن العالم قد خطط عن طريق كائن لامتناه خالد ، روحى ... ليس لدينا خبرة بأى شئ من هذا القبيل . هل يمكن أن نستنتج أن العالم يرجع إلى الجهود المتحدة لآلهة كثيرون[٢] ؟

بهذا البرهان القائم على المماثلة كيف تثبت وحدة الألوهية .؟

إذا كان هناك اناس كثيرون يشتركون فى بناء منزل أو سفينة أو مدينة ، وحكومة أو جمهورية ، فلماذا لا يشترك آلهة كثيرون فى تشكيل العالم ؟

مازال التساؤل مفتوح حول ما إذا كانت هذه الخصائص تتحد فى إله واحد أم تتجه إلى الهة عديدة .

ويستخلص هيوم أنه فى مثل هذا النوع من البرهان سيصبح مذهبا التعدد والتوحيد على حد سواء [٣] .

٤- لا يصح تصور الله بوصفه يشبه الإنسان ، لأن الانسان يمر بمواقف وطبائع ومشاعر لا يمكن أن تنسب الى الله . العواطف والميول البشرية تحوى فى داخلها تناقضات، المحبه والكراهية، الصداقة والعداء ،اللوم والاستحسان، الرحمة والازدراء، الإعجاب والحسد، ... هل كل هذه التناقضات البشرية يمكن أن تنسب الى

(1) ibid :p.149.
(2) Hume :Dialogues p.167.
(3) Alburey castell :introduction to modern ph. p.25.

كـائن أسـمى ؟ أم أننا يمكننا ان ننسب اليه المعرفة والقوة فقط دون الفضيلة [١] ؟ .

كذلك فأفكارنا المستمدة من الحواس غالباً ما تكون زائفة ووهمية ، ولا يجوز تصور الله وكأنه معرض للاستعداد للوقوع فى الخطأ والوهم .

٥- نتيجة لهذا لا يجوز تصور الله على غرار الأشياء التى يتمثل فيها طبائع الفكر الإنسانى ، لأن استخدام كلمات مثل الفكر ، العقل ، المنطق ستدل على إساءة وانتقاص حينما لا يكون من المناسب استخدام مثل هذه التعبيرات . لهذا فالتأكيد أو الاصرار على تأكيد التماثل بين طبيعة الله والعقل البشرى سيترتب عليه التخلى عن فكرة الكمال الإلهى . [٢]

ويبين هيوم على لسان فيلو هذا الاعتراض مرة أخرى فى الفصل الخامس والسادس والسابع ، فيقول .

« انه لابد من التناسب الضرورى بين العلة والمعلول، وإذا قبل هذا المبدأ (التماثل) سيكون من حقنا ان لا ننسب الكمال أو اللاتناه للإله، لأن التجربة لم تثبت كمال العالم ولا تناهيه على السواء . إن هذه العوامل ذاتها يمكن الاستناد إليها فى استبعاد نسبة البساطة وعدم التغير، بل والوحدة أيضاً ، إلى مصدر العالم .

وينتهى الحوار بهذا التصريح : « أنه حسب هذا الفرض لا حق فى أن ننسب الكمال لله حتى فى قدرته المتناهية أو فى إفتراضه منزهاً عن كل زلة وخطأ .[٣]

---

(1) ibid :p.26.
(2) Hum :Dialogues :p.156.
(3) ibid : ch .v. p.162,169.

٦-العالم لا يشبه آلة بقدر ما يشبه حيوان أو نبات vegetation (١) .

هنا ينتقل هيوم من الله بوصفه مخطط أو منظم للعالم ، إلى الله كروح أو نفس للعالم God as a soul of the world

استناداً إلى مذهب المماثلة أو المشابهة analogy فإن النتائج المتشابهة هى لأسباب متشابهة ، بالاضافة إلى هذا يوجد مبدأ آخر مستمد من التجربة وهو الاستدلال على ما هو مجهول مما هو معروف وذلك أيضاً عن طريق التشابه .

مثال : إذا رأيت أعضاء الجسم الإنسانى ، فإنك سوف تستدل أنها مرتبطة بالرأس رغم كونها مختفيه عنك . وإذا رأيت جزءاً صغيراً من الشمس يسطع على الحائط ، فإنك تستنتج أنه بعد حين سترى الباقى فى إتجاه آخر . فهذه الطريقة واضحة داخل حدود التجربة .

والآن : إذا فحصت الكون ، كما يقع تحت خبرتك فإنه يظهر تشابه عظيم أو يشبه الى حد كبير حيوان أو جسم عضوى ، ويبدو أنه يعمل بمبدأ مشابه لمبدأ الحياة والحركة .

« العالم حيوان والإله نفس الحيوان تثيره وتثار به » . وأصل العالم - فيما يرى فيلو - قد نشأ من التوالد والإنبات من أن يكون قد نشأ من العقل والتدبير » .

ولكن هذا يعد إفتراض تعسفى - فيما يرى كلينث - لأن التشابه الضئيل بين العالم والحيوان أو النبات لا يمكن أن يعد أساساً كافياً للبرهان. فهذه الكلمات من توالد وعقل تدل وحسب على قوى وطاقات معينة فى الطبيعة آثارها معلومة ولكن جوهرها غير مفهوم .

نتيجة لهذا : « ليس لدينا معلومات كافية لأى من هذه التأملات لأن

(1) ibid : p.177.

تجربتنا التى نستقى منها البرهان محدودة للغاية ، ولا يمكنها أن تمدنا بتكهن راجح عن الأشياء جميعاً [1] وعلى هذا فالبرهان المستند إلى التخطيط أو المماثلة سيؤدى بنا إلى تجاوز العقل لكل حدوده . وفى مثل هذه المسائل التى نواجهها الآن ، ستظهر مئات من النظريات المتناقضة التى ستأتى بتشبيهات مشوهة ، وسيتاح للخيال الانطلاق على سجيته واختراع ما يروق له، ولهذا، فنحن هنا ازاء حالة تعليق الحكم فيها هو النهج المعقول الوحيد . لأن المذاهب الدينية جميعها موضوع لمشاكل عظيمة لا تقهر . [2]

(٢) ثانياً الدليل السببى: (دليل العلية أو واجب الوجود)

– إذا كان البرهان الغائى أو البرهان القائم على المماثلة قد أدى الى صعوبات ، فهل نلجأ الى برهان آخر ؟ إقتراح آخر أو مذاهب أخرى لبدء الخليقة ؟

– إذا كان من الصعب، إن لم يكن من المستحيل أن نستخلص وحدة الطبيعة الألهية من تأمل لأعمال الطبيعة فحسب ، فلنلجأ إلى برهان العلة : البرهان الذى ينسب الوحدة والكمال لخالق الطبيعة .

« البرهان من السبب الأول أو العلة الأولى هو : «كل ما يوجد يلزم أن تكون ثمة علة أو سبب لوجوده ، فيستحيل إطلاقاً على شىء ما أن ينتج ذاته أو أن يكون علة لوجودة الخاص، وعلى ذلك فعندما نرتقى من المعلولات الى العلل يلزم لنا إما أن نمضى فى تتبع لا متناه

(1) Alburey castell :An introduction to modern ph:p.27-28.
(2) Hume:Dialogues :p.186-187.

دون علة ما نهائية على الإطلاق، أو يتحتم علينا في النهاية أن نلوذ بعلة نهائية ما توجد وجوداً ضرورياً . علينا إذن أن نصل إلى كائن أو موجود واجب الوجود يحمل في ذاته سبب وجوده، دون تناقض ، هذا الكائن هو الله .، (١)

نقد الدليل :

يرى هيوم أن برهان واجب الوجود أو الوجود الضرورى الذى يستمد وجوده من ذاته - هذا البرهان مجرد فرض أمدتنا به المخيلة دون أن تلجأ إليه ضرورة منطقية إذ يجوز أن تكون المادة نفسها لا متناهية فلا تحتاج حينئذ الى من يخرجها من العدم المحض إلى الوجود الحقيقى، لأن العدم المحض منتف، والوجود الحقيقى متحققاً لها أزلاً وأبداً .

ويحاول هيوم على لسان كلينث وفيلو تفنيد هذا البرهان ، أين نجد مثل هذا العبث أو البطلان للإرتداد اللامتناه ، " Where in do we find the absurdity of an infinite regression" فهذا يقودنا إلى ما هو أبعد من قوى ادراكنا .

دعنا نعترف بهذا السخف ، دعنا نعترف بضرورة العلة أوالسبب الأول. هل نتساءل عن سبب لهذا السبب ؟ إذا لم نستطع، هل لا نقترح

(1) ...The argument from the first Cause is This :What ever exists must have a cause of its existence.Nothing can produce itself. In mounting up,therefore, from effects to causes, we must go on tracing an infinite regression Without any ultimate cause. or must finally have recourse to an ultimate cause. We must, therefore, have recourse to a necessarily existent being, the first cause of all things. who carries the reasan of His existence in Hime self, and whom we cannot suppose not to exist without embracing an absurdity: such abeing is the Deity
(Hume : Dialogues. ch. ix p.189-190)

سبب أول مادى لهذا الكون المادى ؟ وإذا لم يكن فى استطاعتنا، هل ننسب للعلة الأولى الروحية أصل الشر والبؤس والضياع التى نلاحظها فى تحليلنا لمذهب المشبهة أو المماثلة ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك ، إلى أى سبب إذن يمكن أن تنسب هذه الشرور ؟

إذن ليس هناك ما يسمى بواجب الوجود لأننا لا نعرف جوهره أو طبيعته .

فكما أننا يمكن أن نتصور واجب الوجود يمكن أيضاً أن نتصور عدم وجوده .

علاوة على ذلك فإننا نستطيع أن نفترض أيضاً أن العالم المادى واجب الوجود لأننا لا نجرؤ على التأكيد أننا نعرف كل صفات المادة. نتيجة لهذا فكلمة واجب الوجود لا معنى لها ، أو ليس ثمة مواءمة بين كلمة وجوب وكلمة وجود .

وكلمة الوجود الضرورى تحمل تناقضاً ذاتياً، وسيكون باستطاعتنا دائماً ، وفى أى وقت أن نتصور عدم وجود ما سبق أن تصورناه موجوداً [١]

---

(1) ibid : p.190-191.

كمال الله يتعارض مع وجود الشر فى العالم *

يؤكد هيوم أن وجود الشر بمختلف صوره فى هذا العالم ينقض كل قول بالعناية الإلهية ، إذ من الممكن تصور عالم خال من الشر، برئ من الرذائل والآثام وذلك من غير شك هو الأليق بالكمال الإلهى الذى يزعمونه، فليس حتماً إذن أن يستند هذا العالم إلى إله منفصل عنه ، بل

(*) إذا كان هيوم قد أوضح أن وجود الشر فى العالم يتعارض مع حكمة الله ، وكماله الامتناد فإن الفيلسوف الالمانى ليبنتز قد رأى خلاف ذلك حيث عرض لهذه المشكلة وذلك حينما ظهر المعجم التاريخى الذى وضعه بيل ولاحظ فيه بعض مظاهر الشر والألم التى تتعارض مع العناية الالهية ، فأخذ ليبنتز ينادى فى كتابه : العدالة الإلهية - بإن العالم على اكمل صورة ممكنة ، لأن الكمال والاحسان والحكمة الالهية لا يصدر عنها إلا الكامل

إلا أن القول بكمال العالم ليس معناه تجريده من الشرور، بل هى موجودة ومتنوعة . مثل الشر الميتافيزيقى : كالنقص الذى نلحظه فى مظاهر الكون، والشر الطبيعى كالمرض والجوع وكل مظاهر الألم المختلفة ، الشر الأخلاقى كالخطيئة والمعاصى الإنسانية .

ومع هذا ، فهذه الشرور لا تتنافى مع كمال العالم لأنها جزئية والعالم خير فى جملته ، وبعض الشر يؤدى الى تحقيق الخير ، وفى وجود الشر بجانب الخير ما يظهر جمال الحياة .

ويعتقد ليبنتز أن إمكان وجود الشر متحقق بالفعل فى الواقع بفضل الإرادة الإنسانية ، لأنها لا تفعل من منطلق الضرورة، بل الحرية ، فلها القدرة على العمل أو الاحجام عنه . أما لماذا يسمح الله بوجود الشر فى العالم ؟ فذلك لأن حكمته تجعل من هذا الشر باعثاً على خير أكبر واكمل فى الكون . لذلك يجب أن نقول إن الله ليس علة الشر فى العالم، لأن الشر يصدر عن إرادة فاسدة . وإرادة الانسان إرادة حرة وبالتالى فمن الممكن أن تتغلب على أهوائها أو تخضع لها .

لذلك فالقول بالضرورة المحتومة أو المطلقة يغلق الأبواب - والنوافذ أمام التقوى والإيمان ويفتحها أمام الكفر والاثم ، كذلك القول بالضرورة يلغى حرية الاختيار التى هى أساس الأخلاق .

[راجع هنا : د. نازلى اسماعيل حسين : الفلسفة الألمانية صـ٥٨:٦٤ .

، الله لا يفعل الشر ، وإن كان يسمح بوجوده فى هذا العالم ، وكان من الممكن أن يجنبه الشرور والاثام ، لكنه يفعل هذا بفضل حكمته وهو قادر على كل شئ - والخير - فيما يرى ليبنتز يفوق الشر فى العالم لأن الله يختار أفضل العوالم الممكنه . ، ص٧٠ : ٨٤ .

- ونحن وان كنا نفضل ما ذهب إليه ليبنتز إلا أننا نريد أن نوضح أن الشر من خلق الله، ومن فعل الانسان في آن واحد ، فالخلق يكون لله ، والفعل يكون للإنسان ، ومن كمال الله أنه خلق المتناقضات ، أى الخير والشر ، النقص والكمال ، ووهب الانسان الإرادة الحرة كى تفعل ثم تحاسب على الفعل بعد ذلك ، وبالتالى فليس ثمه تعارض بين خلق الله للشر ، وبين خيرية الله تعالى .

يجوز تدبيره إلى قوة سارية فيه أشبه بالقوة المنمية فى النبات [1] .

ويتساءل هيوم : هل يتفق وجود الشر والخطيئة فى العالم ، مع الإعتراف بأن الله يشبه الإنسان ؟

« الأرض كلها لعنة ودنس ، حرب مستمرة بين المخلوقات البشرية ، الجوع ، الرغبة ، القوة ، الشجاعة ، الخوف ، القلق ، الرعب ... . كل هذه الأمور لا تثبت على حال ، وإذا كان هذا على مستوى البشر ، فماذا عن الطبيعة بوجه عام ؟ شاهد حيل الطبيعة العجيبة التى تؤدى إلى تكدير حياة البشر والكائنات الحية جميعاً ، فالقوى يفترس الضعيف ويؤدى به إلى مزيد من البؤس والشقاء ، والأضعف أحياناً ما ينقض على الأقوى كما فى حالة الحشرات التى تتغذى على أجسام الحيوان .

فى شتى جوانب الطبيعة نرى هذه النزعة العدوانية التى تسبب الشقاء وتبعث على الدمار ، ولا يستثنى الإنسان من هذا ، فهو عدو لنفسه – حيث نجد الظلم ، الاحتقار ، العنف ، الفتنة ، الحرب ... هذه الأمراض التى تصيب البشرية سواء من الإنسان نفسه أو من الكائنات الاخرى ، وهذه الأمراض الخارجية أقل خطراً من البلايا والمحن الداخلية التى تصيب الإنسان ، فكم من المعاناة تحدث بسبب الخجل ، خيبة الأمل ، تأنيب الضمير ، الخوف ، اليأس ، الاضطرابات العقلية ، الهوس ، الجنون .... من ذا الذى يعيش حياته دون التعرض لمثل هذه المؤذيات ؟

المستشفيات مليئة بالأمراض ، السجون مزدحمة بالأشرار ، فكيف مع كل هذا ... تنسب هدف للطبيعة ، كيف يظهر الجود الإلهى إذن ....

---

(1) Hume: Asymposium: by: Stuart Hampshire. p.86:87.

إحساسنا بالموسيقى والجمال والتناغم ، بل الجمال بمختلف صوره له هدف ما ، فهو يمنحنا الرضى ، لكن ماذا عن احساسنا بالمرض ، النقرس ، الحصوة المرارية ، الصداع النصفى ، ألم الأسنان ، الروماتيزم ... وما إلى ذلك ؟

الطرب والضحك واللهو تبدو ضروباً من الإرضاء بلا مقابل ، بينما الغل ، الحزن ، التبرم هى آلام من الطبيعة نفسها .

فلماذا البرهان على قوة الله ومعرفته بينما صفاته الأخلاقية مازالت تفتقر إلى البرهان ؟

ما الغاية من إثبات الصفات الطبيعية لله مادامت الصفات الأخلاقية مازالت موضع شك وغير مؤكدة [١] ؟

المنهج الوحيد لدعم الجود الإلهى أن ننكر إنكاراً مطلقاً شقاء الإنسان وإثمه ، ولكن هذا تصور واهم يتعارض مع الواقع والتجربة .

الطريقة الوحيدة لتأييد الخير الإلهى هى أن تقول لى :

آراؤك زائدة أو مصطنعة ، تمثلاتك خيالية ، استنتاجاتك على العكس من الواقع والتجربة . فالصحة أعم من المرض ، اللذة أعم من الألم ، والسعادة أعم من الشقاء أو البؤس، باختصار العالم ينزع إلى تحقيق الخير منه إلى الشر .

- ولكنى أضيف بأن هذه التبريرات لا يمكن الاعتراف بها وحتى لو سمحنا بدعواك أن السعادة البشرية تفوق البؤس إلا أنها لا تثبت شيئاً لأن هذا ليس ما نتوقعه من القوة اللامتناهية التى تتحد مع الحكمة اللامتناهية والخير اللامتناه [٢] .

---

(1) Hume: Dialogues: p.199.

(2) Alburey Castell: An introduction to modern ph.: p.26:28.

مازال سؤال الفليسوف أبيقور القديم لم يتلق إجابه حتى الآن :

أهو مريد لإجتناب الشر ولكنه غير قادر على ذلك ، وإذن فهل هو عاجز ؟ أهو قادر ولكنه غير مريد ؟ وإذن فهو حقود ؟ أهو قادر ومريد معاً ؟ فمن أين أتى الشر إذن ؟ ولماذا وجوده ؟

هل هو لا قادر ولا مريد ؟ ... لماذا إذن ندعيه إلهاً (١) ؟

لم كان فى العالم شقاء ؟ لم يكن صدفة بالتأكيد . فمن علة معينة إذن . ذلك عن قصد من الله ؟ ولكن الله جواد جوداً كاملاً . ذلك عن تعارض لقصده ؟ ولكن الله فائق القوة ...

الخلاصة إذن أنه ليس ثمة شئ يمكن أن يزعزع صلابة هذا الاستدلال أو التعقل الواضح وضوحاً قاطعاً إلا إذا اتفقنا على أن هذه الموضوعات تتخطى مجال القدرة الإنسانية لأن عقلنا البشرى غير مؤهل لمثل هذه الأمور (٢) .

كذلك – فيما يقول هيوم على لسان فيلو – أن إفتراض خيرية الله هو أكثر النقاط تعرضاً للهجوم ، ويستخلص من ذلك ... عدم وجود نظرة للحياة الإنسانية أو أحوال البشر نستطيع أن نستدل منها أو يستند إليها فى استخلاص الصفات الأخلاقية التى تقترن بالقدرة اللامتناهية أو الحكمة اللامتناهية . فليس أمامنا إذن غير وسيلة واحدة هى الإيمان فحسب (٣) .

---

(1) Hume: Dialogues: p.198.
(2) Ibid:p.200.
(3) Ibid. p.202.

تعقيب :

١- خلاصة لما عرضناه حول هذه البراهين لإثبات وجود الله عند هيوم نجد أن النتيجة لهذا كله هى إحتجاج يفضى إلى الشك فى الدين الطبيعى .

فكل الأنساق الدينية - فيما يرى هيوم - تؤدى إلى صعوبات لا يمكن فهمها أو التغلب عليها [١] .

إذن محصلة نقد هيوم للدين الطبيعى هى الشك ، وبناءً على هذا فإنه من المستحيل بالنسبه للدين الطبيعى - أن يمدنا بطريقة شرعية بأى مواد أبعد للحياة من تلك التى يمكن إكتسابها بواسطة الدراسة المباشرة للطبيعة .

يقول هيوم : افترض أن البراهين التقليدية يمكن أن تثبت وجود السبب الأول ، المحرك الرئيسى ، الكائن الضرورى ، المصمم العظيم ، وهكذا ... إفترض أيضاً أننا على استعداد أن نجمع أو نوحد هذه الكيانات المختلفة فى كائن واحد يطلق عليه اسم الله . حتى مع كل هذا مازلنا لا نملك - ولا نستطيع أن نملك - أية معرفة طبيعية لما يجب أن يفعله هذا الإله أو يتوقع أن يفعله ، أى ليس لدينا معرفة بفاعلية الله فى الطبيعة [٢] .

٢- نتيجة لهذا - وطبقاً لتصور هيوم عن الله - فإنه من الخطأ أن نفترض أن الله يكشف عن ذاته من خلال معلم ما أو سلطة إعجازية .

---

(1) The upshot of Hume's Critique of natural theology is skepticism.
(2) Honderich Antony flew: Hume's philosophy of Belief. london .N.Y.1945. ch. ix. The Religious Hypothesis. p.222

كذلك ، كل البراهين حول هذا المحتوى هى بلا جدوى .

العنوان الأساسى لهذا الجزء يضع هذا التساؤل :

ما هى النتائج العملية للدين الطبيعى ؟ الإجابة – فيما يرى هيوم – هى بكلمة واحدة – لا يوجد [1] .

٣– يرى هيوم أن البرهان الغائى قائم على إفتراض قانون العلية ولكن هذا القانون يمكن تطبيقه فقط فى العالم الواقعى ، ومن خلال الفروض التجريبية ؛ حيث يمكن الإنتقال من المعلول إلى العلة التى أحدثته .

أما بالنسبه للفرض الدينى فهو – من حيث طبيعته – يختلف تماماً من الفروض التجريبية ، لأنها لا يمكن استنتاجها من التجربة .

والفرض الدينى لا يخضع للفحص والتقويم ، ولكنه حقيقة مؤكدة تتطلب اقتناع وإيمان قاطع ، وإذا كانت التجربة هى المعيار الوحيد لحكمنا على التساؤلات الخاصة بالواقع ، فإن هذا المنهج التجريبى لا يمكن استخدامه فيما يتعلق بنظام الطبيعة . ويستخدم هيوم منهج نيوتن فيقول : إن الفروض على إختلافها لا تسمى هكذا إلا حينما تشتق من الظواهر أما الفروض الميتافيزيقية فليس لها مكان فى الفلسفة التجريبية .

(Newton . p.547).

---

(1) The Original title of this section suggested the question: what are the practical consequences of natural religien ? Hume's answer is mono syllabic: None.

وقد تم اكتشاف قانون الحركة ، الجاذبية بهذا المنهج التجريبى .

« خصائص الأجسام تعرف من خلال التجربة ، وعلينا أن نأخذ ما يتفق مع المنهج التجريبى . ولا يمكن أن نهجر برهان التجارب من أجل البرهان القائم على الأحلام أو الخيالات *» .

٤- ينتج عن هذا أن الاعتراض الذى وجهه هيوم للفرض الدينى هو إعتراض منهجى أو متعلق بالمنهج . فهو يتساءل : لماذا نرفض الإعتراف بهذا المنهج فى الفهم بالنظر إلى قانون الطبيعة ؟ وهنا يتفق هيوم مع نظرة العلم المعاصر . فالعلماء المعاصرون أيضا يتساءلوا - على أى أساس لا يسمح بهذه المناهج الاستنتاجية ذات الطابع الفرضى فى الدين الطبيعى بينما يطبق نفس المنهج فى العلم الطبيعى ؟

الإجابة - فيما يرى هيوم - هى أن المشكلة تكمن فى الإختلافات اللامتناهية لطبيعة ومشكلات كل منهما (العلم والدين) .

ففى أعمال الفن الإنسانى يجوز الإنتقال من المعلول إلى العلة ، والعودة مرة أخرى من العلة لنكون إستدلالات جديدة تتعلق بالمعلول . ...

أما بالنسبة لأعمال الطبيعة فالحالة تختلف ، الإله يعرف من خلال أعماله ، هو كائن واحد فى الكون ، لا يمكن فهمه من خلال الطرائق التجريبية التى لدينا عن طريق التشابه أو المماثلة .

---

* The qualities of bodies are only Known to us by experiment, we are hold for universal all such as universally, agree with experiments. We are certainly not to relinquish the evidence of experiments for the sake of dreams and vainfictions of our own devising". Newton (1) p398. (Hume's ph. of Belief. p224-225).

هذا ويعتقد هيوم أن جوهر الخطأ فى هذا الموضوع يكمن فى أننا نفترض – ضمناً – أنفسنا كما لو أننا فى موضع كائن سام . الخلاصة أن كل شئ تقريباً محكوم بمبادئ وقوانين مختلفة جداً عن قوانين العالم الطبيعى ، كما أن قوانين المماثلة الخاصة بالذكاء الإنسانى تختلف عنها بالنسبة للكائن لأنه مختلف تماماً واكثر سمواً .

ويلخص أبيقور نتيجة هذا الحوار بقوله :

« كل فلسفة ، كل دين ، لا يمكن أن يدعى القدرة على تجاوز المجرى العادى للتجربة أو يقدم لنا مقاييس للسلوك تختلف عن تلك التى قدمها التأمل فى الحياة العامة [1] .

وفى تعقيب هيوم على قانون السببية يقول :

« بينما نفترض وجود سبب عاقل خاص ... فإننا نلاحظ أن هذا السبب غير مؤكد ، غير ذى فائدة ... فهو غير مؤكد لأن الموضوع يتجاوز نطاق التجربة الإنسانية تماماً ، وهو غير مفيد لأننا لا يمكن أبداً ، طبقاً لقوانين العقل المحدود ، أن تنتقل من السبب لأى نتيجة جديدة .

إضافه إلى هذا يقدم هيوم نقطتين هامتين :

١– الفرق أو الاختلاف اللامتناه للموضوع يكمن فى أن الله فريد ، والعالم ليس كذلك .

اله المؤمنين هو إله فريد ، كائن واحد ، مفارق ، غير قابل للفهم ،

---

(1) Handerich Antony flew: Hume's ph. of Belief. p228 (See Kemp Smith (3),4).

طرائقه أو مناهجه ليست طرائقنا أو مناهجنا ، أفكاره ليست أفكارنا [١] .

٢- نتيجة لهذا ، فالتجربة هى المعيار الوحيد الذى يمدنا بأى تساؤل عن الواقع ، ومن المستحيل بالنسبة لهذا المعيار أو هذه السلطة التجريبية أن تكون عوناً لنا فيما يتعلق بأصل العالم ، فهذا تساؤل لا نعلم أى برهان أو دليل عليه ، والأسباب النهائية للكون تبقى مبهمة وغامضة .

بداية الاعتقاد الدينى

بعد أن أثبت هيوم - على نحو ما أوضحنا - عدم مشروعية البراهين العقلية المقدمة على وجود الله كالبرهان القائم على التصميم أو المماثلة ، والبرهان السببى ، أقر انه بذلك لا يكون باستطاعتنا إثبات وجود الإله أو حتى إثبات أى شئ ذى بال يتعلق بطبيعته إعتماداً على مثل هذه البراهين. إلا أنه يمكن الدفاع عن رسالة الدين بالاستعانة بوسيلة أخرى ، يوجه هيوم إنتباهنا إليها فى الفصول الأخيرة من كتابه المحاورات .

وهنا ستتغير ملامح القضية تغيراً ملحوظاً ، حيث تتخذ المشاعر الآن مكان الصدارة بدلاً من الاستدلال والبرهان كأساس للدين .

« رأيى هو التسليم بأن كل إنسان يشعر فى صدره بحقيقة الدين على نحو ما ، وهو مقود إلى توخى الحماية من ذلك الموجود الذى يعتمد عليه ،

---

(1) The infinite difference of the subjects lies in both the uniqueness of God and the un uniqueness of the universe.
The God of the theists is unique. " Asingle being ... not comprehended under any species or genus. He is Transcendent and in Comprehensible. His way are not our ways, His thoughts are not our thoughts." (ibid p.229.230).

بل وتعتمد عليه الطبيعة كلها فى شمولها » [١] .

وهنا يسعى هيوم إلى تبرير وجود الدين بفضل ما يتصف به الإنسان من حماقة وتعاسة ترغمه على البحث عن كائن قادر على حمايته .

يقول هيوم : « من ذا الذى يرتاب فيما يعلنه الناس جميعاً استناداً إلى مشاعرهم وتجاربهم المباشرة ؟ ما فى الحياة من شقاء وتعاسة الإنسان والفساد العام فى طبيعتنا وما يتخللها من استمتاع ونهم لا يرتوى بالمتع والثراء والمجد ، كل هذه الأحوال كثيراً ما تدفعنا إلى ذلك ، وأفضل وسيلة، بل الوسيلة الوحيدة بحق لإعادة الإنسان إلى الشعور المناسب بالدين هى التمثل المنصف لتعاسة الإنسان وشقاءه » [٢] .

الناس لا يلجأون قط إلى العبادة بنفس الاستعداد الذى يلجأون به إليها عندما يزلهم الحزن أو المرض . أليس هذا دليلاً على أن الروح الدينية وثيقة الصلة بالأسى ، فالناس حين يحزنون يجدون عزاءهم فى الدين ، كما أن الخوف والرجاء يدخلان معاً ، ويثيران الذهن البشرى ، ويتسقا مع الدين ، أما عندما يكون الإنسان منشرحاً – فى حالة العمل والترفيه ، فهو يستغرق بالطبع فى هذا ، ويكاد لا يفكر فى الدين .

وقد أدى هذا الموقف إلى نظرة تشاؤمية لم يتفوق فيها أحد على هيوم باستثناء شوبنهور .

ويرى هيوم أن النهوض بالدين أمر موغوب فيه لأنه يقوم بدور عظيم النفع فى المسائل الإنسانية .

---

(1) Hume ; Dialogues. ch. x. p.193.

(2) Ibid.p.193-194.

ويختتم هيوم – على لسان فيلو – الفصل الثانى عشر والأخير من المحاورات بقوله : « رغم محبتى للبراهين الفريدة ، فليس هناك من هو أعمق منى إحساساً بالدين الإلهى كما ينكشف للعقل من إبتداع الطبيعة وصناعتها اللذين يستعصيان على التفسير . ثمة غرض ، ثمة قصد ، ثمة تدبير يؤثر فى كل مكان فى اكثر المفكرين . « الطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً » . وعلى ذلك فكل العلوم تكاد تقودنا إلى التسليم بصانع أول عاقل ، وإن كانت لا تظهر أو تبين إبانة مباشرة عن ذلك القصد . وهذا يدل على أن الله يكشف عن ذاته كشفاً مباشراً ويدل على وجوده من الطبيعة . وهنا نرى بوضوح أن الدين قائم على الإيمان والاعتقاد فحسب ، والله يكشف عن ذاته من خلال الطبيعة بعيون الإيمان ، وليس بالبرهان .

وهذه النزعة الدينية الموجودة فى الإنسان لهى أسمى بكثير من الدوافع التى تعمل من منطلق المنفعة أو الواجب .

إن الحجج أو البراهين التى يقوم عليها الفرض الدينى تفوق الاعتراضات التى تقدمها . العقل البشرى لا يستطيع أن يقدم حلاً أكثر استيفاءً فى مسألة خارقه بالغة فى روعتها ، والإنسان حين يكتشف نقائص العقل الطبيعى فإنه يتجه إلى طريق آخر ، سيختلف بالطبع عن الدجماطيقى المتغطرس الذى يحاول تشييد نسق لاهوتى كامل بالاستعانة بالعقل وحده [1] .

---

(1) Hume ; Dialogues. ch. xii. p.227.

الفصل الثالث

المعجزة

المعجــــــزة

يرى هيوم أن الاعتقـاد فى الله - فى الأزمـنة الماضيـة - قد أيـدته الحجج التى تعتمد على المعجزات ، وهذه المعـجزات إنما هى تجـاوز أو إنتهاك لقوانين الطبيعة تحدث من وقت لآخر ، وهى ترتبط بصانعها amiracle - worker أو فاعلها ، وهو الله .

ويمكن القول بأن لفظ المعجزة يستعمل عادة ليدل على حادثة تتضمن قلباً لقوانين الطبيعة أو تدخلاً لما هو فوق الطبيعى فى المجال الطبيعى . كذلك تشير المعجزة إلى حادثة نادرة وغريبة لا يمكن فهمها ، وبهذا المعنى الأخير فإن ماهو معجزة فى عصر ما قد لا يصبح كذلك ، بل يصبح مقبولاً ومفهوماً فى عصر آخر [١] .

عرض هيوم للمعجزة فى الفصل العاشر من كتابه ، بحث فى العقـل البشـرى Enquiry Concerning human understanding فى جزأين :

- فى الجزء الأول : لم ينكر هيوم حدوث المعجزة أو أنها لا تحدث أبداً ، أما فى الجزء الثانى فقد إنصب إهتمامه إلى طبيعة البرهان الذى تقوم عليه المعجزة ، ومدى مصداقية هذا البرهـان الذى يؤيد حدوثها .

يقول هيوم : « إن السلطة سواء أكان مصدرها الكتاب المقدس أو التقليد إنما تؤكد بواسطة الرسل الذين هم شاهدى عيان لهذه المعجزات ، والتى يثبتوا بها رسالتهم المقدسة . ولكن - من ناحية أخرى - نجد أن

---

1) Vergilus Ferm : " encyclopedia of Religion . N.Y. 1945. (Miracle p.493. .

شهادة الحس والتجربة أصدق وأقوى ، لأن البرهان على صدق حواسنا أشد من البرهان على صدق المسيحية التى تعتمد على من روى هذه المعجزات. فأتباع المسيح قد رأوا شيئاً ثم أخذ الرواه على مر السنين يروى بعضهم لبعض حتى إنتهت إلينا نحن شهادة الشهود الأولين . فهى شهادة رؤية فعل فيها الزمن فعله ، ولذلك فهى أضعف من شهادة حواسنا نحن ، ولما كانت الحجة الأضعف لا ترجح الحجة الأقوى كان حتماً علينا ألا نصدق شهادة حس نقلت إلينا منذ زمن قديم إذا ما تعارضت مع شهادة حسنا فى لحظتنا الراهنة .

يقول هيوم : « أنا أمدح نفسى ، لقد اكتشفت برهاناً سيكون وقفة رادعة لكل أنواع الأوهام الخرافية وكل تعليلات المعجزات والأعاجيب المقدسة ذات الطابع التجاوزى ، ويحرر الإنسان من التوسلات الوقحة ، وبالتالى سيكون مفيداً ما بقى العالم [١].

والمعجزة – كما يتصورها هيوم – هى خروج على قوانين الطبيعة أو تجاوز لها أو هى ضد إطراد التجربة والطبيعة ، وإذا كان من الممكن إثبات هذا الإطراد التجريبى فى الطبيعة بالبرهان ، فإن هذا البرهان نفسه لهو دليل كامل ضد حدوث أى معجزة . وهذا البرهان لا يضعف أو يتحطم إلا ببرهان عكسى أعلى منه يكون وصفة أنه معجزة [٢].

أولاً : ما البرهان الذى يثبت أن الحدث الأعجازى يحدث أو ما الدليل على حدوث المعجزة ؟

---

1) Hume : An Enquiry Concerning Human understanding Edited by. D.C. yalden - Thomson . 1951 . ch. X. p. 113-114.

2) Alburey castell : An introduction to modern ph. p. 19-20.

ثانياً : هل يمكن البرهنة على حدوث المعجزة ؟

إنطلاقاً من هذين المحورين :

يقر هيوم منذ البداية أن المعجزة لا يمكن أبداً أن تبرهن كى تكون أساساً للنسق الدينى [1]، وهنا يختلف هيوم عن الذين تناولوا المعجزة بوصفها جزء من النسق الدينى أو الفائق للطبيعة *.

---

1) Honderich Antony flew : Hume's ph. of Belief. ch. Viii Miracles and and methodology . p. 173-174 .

* المعجزة لفظ دينى أساساً ، ومن أجل تقديم تعريف مقبول له يجب أن يتم ذلك من خلال وقائع دينية [1].

والمعجزة إنما تعبر عن حادثة نادرة من شأنها أن تكون مناقضة لسير الحوادث المألوف وتفوق قوى الطبيعة والإنسان أو على الأقل ما نعرفه عن هذه القوى . فالمعجزة لا تقضى على العلية ، لأنها خروج على العلة بالمعنى الطبيعى فقط ، أى على حتمية الظواهر . والمعجزة من متضمنات الألوهية [2] . أو هى علامة على فاعلية الإرادة الإلهية [3].

، المعجزة ما هى إلا ظاهرة دينية بحته متصلة باللامتناهى دون أن يكون لها علاقة مباشرة بالطبيعة المتناهية التى يعبر عنها قانون فيزيقى . وهى ليست إنجازاً إنسانياً بالمرة ، بل هى هبة من الله لمن يحتاجها .

وبهذا المعنى تمثل المعجزة جوهر الدين ، إذ لاتوجد خبرة دينية عميقة لا تكون فى الوقت ذاته خبرة بما هو معجز .

ولن يحتاج الدين المعقول إلى إنكار المعجزة ، بل سوف يقبلها وقد تحررت من دلالاتها الحرفية وغير العملية .

ولأن المعجزة جزء من النسق الفائق ، فهى تقوم أو تسقط وفقاً له . والذين يقبلون بدين مفارق سوف يسلمون بالمعجزة [4].

1) Frederic , platt , charles H. Kelly. " Miracles " london. 1913 p.48
2) Howking . " The Essentials of theism " p.113.
3) Baldwin , James Mark . dictionary of ph . and psychology.1960. Vol II. p.86.
4) Brandam's. " A dictionary of comparative Religion ." New. york. p.168.

ويتساءل هيوم : هل توجد المعجزة فى كل العصور بصورة سامية ومقدسة ؟

والإجابة على هذا التساؤل يوردها هيوم فى أربع محاور هامة :

١) يقدم هيوم دفاعاً ضد الالتماسات السليطة للتعصب الأعمى والخرافة والأسطورة . وليس سلاحاً قوياً قادراً على دحض وتفنيد أى إدعاء . ويفهم من هذا أن جدل هيوم حول هذا الجزء هو جدل دفاعى من الدرجة الأولى .

٢) هذا الدفاع الذى يقدمه هيوم هو من أجل البحث والفحص .

٣) هذا الفحص الدقيق يحقق أهدافه مع العقلاء والمتعلمين فقط .

٤) فى كل هذا يؤكد هيوم على الدليل القائم على شهادة الشهود Testimonial evidence ، وخاصة ما يؤيده المؤرخون .

البرهان التجريبى إحتمالى :

يقول هيوم : « على الرغم من أن التجربة هى المرشد الوحيد فى إدراكنا لأمور الواقع ، إلا أنه لابد أن نضع فى الاعتبار أن هذا المرشد ليس منزهاً عن الخطأ تماماً [١] .

قد يكون الإنسان مثلاً فى إنجلترا على حق إذا توقع أن يكون الجو فى أى يوم من أيام يونيو أحسن منه فى أى يوم من أيام ديسمبر ، لأن خبرته قد دلت على ذلك فى سنيه الماضية . لكن ذلك لا يعنى إستحالة أن يقع فى الخطأ حين يجد يوم فى شهر ديسمبر أحسن جواً من يوم فى

1) Honderich Antony flew : Hume's ph. of Belief. p.174.

شهر يونيو . ومع ذلك فلا يكون هذا الخطأ مدعاة إلى نبذ الخبرة ، لأن الخبرة نفسها هى التى تدله كذلك أن أمثال هذا الشذوذ فى إطراد الحوادث قد يقع . فمن أحكام التجربة يتعلم الإنسان أن هذه الأحكام ليست كلها سواء فى درجة اليقين . فمنها ما يرجح صدقه ومنها ما يقل فيه الترجيح ، وهكذا . وعلى هذا فالأحكام التجريبية تتميز بالطابع الاحتمالى وليس اليقين الكامل .

علينا أن نلاحظ أن أكثر أنواع التفكير شيوعاً ، وأكثرها فائدة – فيما يرى هيوم – هى التى تشتق من شهادة الشهود . ولكن من ناحية أخرى ، علينا ألا نثق ثقة مطلقة فى هذه الشهادة ، وألا نطمئن تماماً ، لأن البرهان الإنسانى يبنى على التجربة الماضية التى تعتمد على الذاكرة أو المخيلة ، لهذا ربما يتنوع مع التجربة وينظر إليه إما بوصفه برهان أو احتمال . as a proof or probability ، لأنه يخضع لمجموعة من الملابسات تجعلنا نكون على حذر حينما نطبق أحكام هذا النوع من الشهادة ، وقد تتعارض الشهادات – لأسباب عديدة – نتيجة من يدلى بها ، وهنا المعيار النهائى الذى نوضح به الغموض الذى يكتنف مثل هذه المسائل لابد أن ينبع من الملاحظة والتجربة [1] .

ولكن التجربة لا تفيد كمعيار نحكم به حينما يتعلق الأمر بما هو إعجازى أو غير عادى أو فائق للطبيعة extra ordinary . لأن التناقض فى شهادة الشهود قد يؤدى إلى تدمير متبادل للإعتقاد .

1) Hume : Enquiry. ch. X. p. 116-117.

كذلك فالطبيعة - كما يرى هيوم - تختلف من مكان إلى أخر ، ومن عصر إلى أخر ، ولهذا ما يمكن إعتباره معجزة فى مكان ما قد يكون (شيئاً عادياً) فى مكان آخر . *

- كذلك : إذا ادعى شخص ما أنه لديه القدرة التى يمكنه بها أن يشفى شخص مريض ، أو تتسبب فى موت شخص يتمتع بصحة جيدة ، كما تستطيع هذه القدرة أن تأمر السحب أن تسقط مطراً ، تأمر الرياح أن تهب ، باختصار تأمر أحداث الطبيعة أن تخضع لها فى الحال ، فهذا كله يمكن أن ينظر إليه بوصفه معجزات ، لأنها فى الحقيقة مناقضة لقوانين الطبيعة . وهنا تصبح المعجزة ضد إطراد الطبيعة ، لأنه لا يمكن اعتبار أى شئ معجزة إذا حدث بطريقة توافق مجرى الطبيعة .

---

* يستشهد هيوم بحالة الأمير الهندى الذى رفض الاعتقاد فى العلاقات الأولى المتعلقة بتأثير الثلج ، والتى تستلزم بالضرورة دليل أقوى يمكن خضوعه للحقائق التى تشتق من الطبيعة مع تلك التى لا يعرفها ، والتى يقل تشابهها مع الأحداث التى لديه من التجربة . ويروى هيوم أنه لا يوجد هندى لديه التجربة أو يمكنه أن يجرب أن الماء لا يتجمد فى المناخ البارد وهذه طبيعة مكانية فى بقعة غير معروفة تماماً بالنسبة له ، ومن المستحيل أن يخبر بطريقة أولية ماذا ينتج عن هذا . وعند إجراء تجربة جديدة فالنتيجة ربما تكون مجرد تخمين . فعمليات البرد أو التجميد ليست تدريجية ، ولكن حينما نصل إلى نقطة التجميد يمر الماء فى لحظة من السيولة التامة إلى الصلابة الكاملة .

هذا الحدث - ربما يسمى حدثاً إعجازياً أو خارقاً للطبيعة ويحتاج إلى دليل قوى يجعله قابل للتصديق عند أصحاب المناخ الحار أو الدافء ، ولكنه مازال غير إعجازى not miracaculous ، وغير مناقض للخبرة أو إطراد الطبيعة فى مكان آخر .

سكان سوماترا sumatra مثلاً دائماً ما يروا الماء فى حالته السائلة - طبقاً للمناخ الحار - أما حينما تتجمد الأنهار - فإن هذا ربما ينظر إليه بوصفه إعجوبة prodigy .

إستخدم كل من لوك ، بوتلر نفس التوضيح ، وربما يكون هيوم قد أتبع وجهة نظر بوتلر .

Lock (iv (xv) 5 : vol . II. p. 366-7

Butler (vol. i p. 5.)

معنى المعجزة :

المعجزة يمكن تعريفها بأنها تجاوز أو خرق لقانون الطبيعة عن طريق إرادة خاصة للأله أو بتوسط عامل غير مرئى . والمعجزة يمكن إكتشافها بواسطة البشر أو لا وهذا لا يغير من طبيعتها أو جوهرها . *

مادمنا قد سلمنا بأن الخبرة أساس الأحكام كلها ، فلماذا نوشك على اليقين إذ نحكم بأن الموت لاحق بكل حى ، وبأن النار تأكل الخشب وتنطفئ بالماء ؟ وأن الرصاص لا يظل عالقاً فى الهواء ؟ لماذا نحكم على هذا الأحكام كلها ؟ أليس ذلك لاتفاقها مع قوانين الطبيعة التى شهدت بصدقها الخبرة المطردة ، وأن المعجزة هى أن تنكسر مثل هذه القوانين ويقف اطرادها ، وأن ما يجرى وفق مجرى الطبيعة المألوف لا يقال عنه أنه « معجزة » ؟

فليس معجزة إذن أن نجد إنسان يبدو فى صحة جيدة ، يموت فجأة أو فى حادث ، على الرغم من أن هذا الموت نادر الوقوع بالنسبة لحالات الموت ، ولكنه رغم ذلك مما قد ألفنا وقوعه حيناً بعد حين ، ولذلك لا يعد وقوعه من المعجزات ، لكن ما يعد معجزة هو أن يرتد ميت إلى الحياة من جديد لأن مثل هذا الحدث لم يقع فى مشاهداتنا أبداً ، فلم يشهده إنسان فى أى عصر وفى أى بلد .

---

* Amiracle may be a ccurately defined : atransgression of low of nature by a particular volition of Deity, or by interposition of some invisible agent. Amiracle may either be discoverable by : man or not. This alters not its nature and essence . (Enquiray . ch. x. p. 118-120.)

وعلى ذلك فالواقعة لا تسمى « معجزة » إلا إذا خرجت عن مألوف خبرتنا المطردة، ولأن الخبرة المطردة ترتقى إلى درجة البرهان ، فإنه يوجد هنا برهان كامل ومباشر ، من واقع الأمر ، ضد وجود أى معجزة ، لايمكن تدمير مثل هذا البرهان أو تصديق المعجزة إلا برهان مضاد يفوق البرهان الأول .

نتيجة لهذا : « لا شهادة تكون كافية لتأسيس المعجزة إلا إذا كانت هذه الشهادة من ذلك النوع الذى بطلانه سيكون أكثر إعجازاً من الحقيقة التى نسعى إلى تأسيسها : وحتى فى هذه الحالة فإنه يوجد تدمير متبادل للحجج ، والأعلى فقط يقدم لنا تأكيداً يتناسب مع ذلك القدر من القوة البرهانية التى تبقى بعد طرح أو إستبعاد الأدنى » (١).

البرهان الذى نسوقه تعزيزاً وتأكيداً لمعجزة ما لا يكفى أن يكون برهاناً إلا إذا كان بطلانه أشد إعجازاً من المعجزة نفسها التى نقيم عليها البرهان .

- ويستشهد هيوم على هذا فيقول :

إن قال لى قائل : إنه شهد بعينه ميتاً يرتد إلى الحياة سألت نفسى قائلاً : أيهما أقرب إلى إحتمال الوقوع : أن يكون هذا الرائى قد خُدع أو

---

(1) " No testimony is sufficient to establish a miracle unless the testimony be of such akind that its falsehood be as miraculous as, or more miraculous than, the fact which it endeavours to establish. Even in that case there is a mutual desteruction of argument, and the superior only gives us an assurance suitable to that degree of evidential force which remains after deducting the inferior.

[Hume: Enquiry. p 120]

إنخدع ، وإما أن الواقعة التى يرويها قد وقعت بالفعل ، والتى تخرج عن مألوف ما قد شهده الناس جميعاً فى كل زمان ومكان من أن الموتى لا يرتدون إلى الحياة .

وهنا أوازن بين هاتين المعجزتين : أيهما أكثراً إعجازاً : معجزة أن يكون الرائى خادعاً أو مخدوعاً ، ومعجزة أن يكون الميت قد أرتد إلى الحياة . وما يبدو لى أكثر إعجازاً منهما يكون عندى أبعد عن القبول والتصديق ، فلأن يكون الميت قد أرتد إلى الحياة أبعد عن القبول والتصديق من أن يكون الراوى الذى يروى هذه الواقعة قد خدعته عيناه فيما رأى (١) .

هنا يصل هيوم إلى نتيجة الجزء الأول ، ونود أن نشير إلى أن جدل هيوم – فى هذا الجزء الذى عرضناه – هو جدل دفاعى ، الهدف منه توضيح أنه توجد صعوبات هامة وخطيرة متأصلة فى أى محاولة لبناء الحدث الإعجازى . ولكن هيوم لم يثبت هنا أن الحدث الإعجازى أو المعجزة لا تحدث ، بل كل ما توصل إليه أنه توجد صعوبات – من طبيعة الفكرة نفسها ، ومن طبيعة الواقع ، تفرض نفسها عند إثبات حدوث المعجزة ، حيث الصراع والتناقض فى البراهين . بالإضافة إلى هذا ، فإن هذا الجدل قد تم تقديمه بوصفه مجرد بحث ومراجعة ، وهو موجه على وجه الخصوص للحكماء والمتعلمين أى من هم على درجة عالية من العلم ورجاحة العقل ،ويعتمد هيوم هنا على الدليل القائم على شهادة الشهود وكاتبى التاريخ (٢) .

---

1) Ibid: p.120.

2) Honderich Antony flew : Hume's ph.of Belief. ch.viii p.178.

- ويرتكز نقد هيوم على إمكان حدوث المعجزة فى محورين :

الأول : والأكثر صراحة ، وهو أن المعجزة تدل على خرق أو تجاوز لقوانين الطبيعة . ودليلنا على الاعتقاد فى إطراد الطبيعة هو أكثر قوة لدرجة أنه لا برهان للشك فيه سيكون أقوى منه . أو بمعنى أكثر وضوحاً الأعتقاد فى إطراد الطبيعة أكثر قوة من الإعتقاد فى المعجزات ، لأن الأول موجود ويمارس من خلال التجربة .

النقد الثانى : « حتى لو إفترضنا أن البرهان على المعجزة يجب أن يكون أكثر قوة لدرجة أن بطلانه سيكون هو نفسه معجزة ، فإن من السهل أن نوضح إننا أكثر حرية فى خضوعنا لهذا ، وأنه لا معجزة يمكن بناؤها على دليل كاف - وهذا هو هدف الجزء الثانى .

يبدأ هيوم هذا الجزء بقوله :

« إفترضنا فى المناقشات السابقة أن الدليل الذى تبنى على أساسه المعجزة من الممكن أن يرقى إلى درجة البرهان الكامل ، وأن بطلانه هذا الدليل سوف يكون معجزة أو أعجوبة حقيقية Real prodigy ، لكن من السهل أن نوضح أننا كنا أكثر تسامحاً فى هذا الحكم ، لأنه لا يوجد أى حدث إعجازى قد بنى على دليل أو برهان تام [1] .

يقدم هيوم أربع أسباب على أساسها تم إصدار هذا الحكم :

أولاً : عدم كفاية الشهود :

- يلاحظ أنه لا يوجد فى تاريخ البشر معجزة واحدة مما يروى قد شهدها عدد كافى من الشهود الذين يطمئن إلى رجاحة عقولهم

---

1) There never was a miraculous event established on so full an evidence . (Hume : Enquiry . ch . x . p.121.

وإرتفاع منزلتهم من التربية العلمية إرتفاعاً يعصمهم من الوهم ، وأن تكون بمثل هذا التصديق الكامل الذى يجعلها بمنأى عن الشك وخداع الآخرين .

ثانياً : النماذج العديدة للمعجزات الخاطئة والخادعة ، التى تم سردها ، توضح الميل القوى لدى البشر فى الإعتقاد فى مثل هذه الأعاجيب ، وخوارق الطبيعة ، وهذا يؤدى إلى توليد الشك فى مثل هذه الروايات التى تتعلق بهذه الأمور .

- المعجزات ، النبوات ، الأحداث الفائقة للطبيعة . قد أكدت تناقضها فى كل العصور ، وأثبتت تماماً وبدرجة كافية الميل القوى من جانب البشر لما هو خارق للطبيعة ، وماهو معجز وولدت لدينا الشك ضد كل علاقات هذا النوع .

إن من طبيعة الإنسان نفسها ما يغريه بالاستماع إلى ما يثير العجب والدهشة . فما أهون عليه أن يستمع إلى غريب الأحداث ليشبع بها خياله . فعل الرغم من أنه فى حياته العلمية تراه يزن صدق الرواية على أساس خبراته الماضية إلا أنه حين تمعن الرواية فى بعدها عن الواقع تراه يستغنى عن الخبرة ومقياسها فى التصديق أو التكذيب ، وينصت بقلبه لا بعقله .

ثالثاً : مما لاشك فيه أن المعجزة تكثر بين الشعوب الجاهلة والمتأخرة حضارياً ، وحتى إذا وجدت شعباً متحضراً لا يزال يروى شيئاً عن هذه المعجزات ستجده قد ورثها عن أسلافه أيام جهلهم وتأخرهم ، وقد نقلها السلف إلى الخلف بعد أن أحاطها بشىء من الرهبة حتى لا يعبث بها عابث .

هذا الاعتبار الثالث ، هو إفتراض قوى ضد كل الخرافات وخوارق الطبيعةوما يوصف بأنه معجزة .[1]

---

(1)Hume : Enquiry . p.121:123

- فى الأزمنه الماضية نلاحظ أننا نميل إلى تخيل أنفسنا وكأننا إنتقلنا إلى عالم آخر، يختلف فى طبيعته عن عالمنا الواقعى أو حاضرنا . الحروب ، الثورات ، الطاعون ، المجاعات ، الموت ... كل هذه الحوادث لم تكن أبداً نتائج لتلك الاسباب الطبيعية التى توجد فى الخبرة ، وإنما كانت تفسر بطريقة غامضة وعجيبة تخفى تماماً الأحداث الطبيعية المرتبطة بها ولكن بالتقدم نحو العصور التنويرية ، فإننا نتعلم حالاً أنه لا يوجد خوارق للطبيعة ، وإنما إنتقل هذا إلينا عن طريق ميل الانسان الطبيعى لتصديق ما هو معجز . ورغم أن هذا الميل ربما يتم ضبطه بالتربيه والتعلم ، إلا أنه لا يمكن إستئصاله أبداً من طبيعة البشر .

ويعلق كاتب يهودى - من خلال قراءاته لهذه التواريخ - أن هذه الاعاجيب وهذه المعجزات لا تحدث أبداً فى أيامنا الحاضرة [1] .

رابعاً :

الاعتبارات الثلاثة السابقة - كما يقول هيوم - تعتمد على التجربة، أما الرابع فهو أكثر حداثه، ومن نوع مختلف .

« لزاماً علينا أن نعترف أنه فى أمور الدين : ما هو مختلف فهو متناقض » .

we must recognize : That in matters of religion whatever is different is contrary.

- من المستحيل أن تكون ديانات مختلفة مثل روما، تركيا، سيام، الصين، كلها قد بنيت على أساس متين . لهذا : كل معجزة

---

(1) Ibid. P.124.,
Hume's ph.of Belief ch.viii. miracles and methodology p.178,179.

تدعى أنها وجدت فى أى من هذه الديانات (وكل منها ملىء بالمعجزات) إنما وجدت من أجل تأسيس النسق الخاص الذى تنتسب إليه، ولهذا يكون لديها نفس القوة التى تستبعد بها كل الانساق الأخرى، وبذلك تصبح المعجزة ذات قوة يمكن بها الإطاحة بكافة الأنظمة الدينية الأخرى ، وفى تدميرها للنسق المنافس فإنما تحطم مصداقية المعجزات التى بنى عليها هذا النسق .

والخلاصة :

أن كل المعجزات الخاصة بالديانات على إختلافها تعتبر فيما بينها حقائق متناقضة، والبراهين عليها إنما تناقض كل منها الأخرى ، وتحطم بعضها بعضاً .

على سبيل المثال : حينما نصدق أو نعتقد فى أى معجزه خاصة بمحمد أو تابعيه (فلابد أن يكون لدينا برهان على ذلك من بعض من روى هذه المعجزة، ومن ناحية أخرى علينا أن نصدق أيضاً فى المعجزات التى جاءت فى الديانات الأخرى كالرومان، الاغريق ، الصين ، وغيرها، وهنا سنجد أن لكل دين معجزاته الخاصة التى تتناقض مع معجزات أخرى نتيجه لمن روى هذه المعجزات، ولاختلاف الحقبة الزمنية بين كل نسق دينى وآخر .

- هذا البرهان الذى يقدمه هيوم ربما يبدو أكثر دقه ودهاء، ولكنه فى الحقيقة لا يختلف عن تفكير قاضى قد افترض أن شهادة اثنين من الشهود شاهدا جريمة ضد أى فرد، هذه الشهادة يمكن تدميرها وبطلانها بشهادة أثنين آخرين، اكدا أنهما كانا على بعد

مائتين من مسرح الجريمة وقت وقوعها .[1]

- كتب هيوم - في كتاب چورچ كامبل - « بحث أو مقال في المعجزات » * إذا أثبتت المعجزة عقيدة ما بوصفها كشف من الله، وهى لهذا صادقة، فإن هذه المعجزة لا يمكن أبداً أن تكون أساساً لعقيدة مناقضة لها . لهذا فالحقائق تصبح متعارضة تماماً كالمعتقدات ، كل منها مع الأخرى .

يقدم هيوم نماذج عديدة تؤكد - على لسان الرواه - أنها معجزات حقيقية بينما هى متناقضات لا تصلح لأن تكون أساساً لأى نسق دينى .

١) النموذج الذى يذكره هيوم عن المعجزات يأتى على لسان تاكيتوس Tacitus - القصة التى رواها هذا المؤرخ تبدو - فيما يرى هيوم - وقد تم صياغتها بطريقة بلاغية ، بحيث تزيد من حبكة ودلالة المعجزة بالإضافة إلى أنها تحاط بكم هائل من الخرافات .

يقول هيوم : « روى المؤرخ أن الامبراطور Vespasiam قد شفى رجل أعمى - في الاسكندرية عن طرق اللعاب الذى يخرج من الفم. وقد علق هيوم على هذا بقوله : « أن الوضع لا يحتاج إلى دليل لإثبات بطلان هذا الادعاء .

---

(1) Hume : Enquiry - ch.x . on miracles . p.126:127.

* George Compbell's " Adissertation on miracles ". Letters vol I. No.188. p.350-351.

-دعنا نعود إلى النص الأصلى لتلك القصة، سنجد أن كلا الرجلين الأعمى ، الأعرج قد طلبا المساعدة من الإمبراطور بناءً على نصيحة الإله Serapis (المعبود الأول للرعاع السذج فى الاسكندرية فى ذلك الحين) وبالطبع سأل الأمبراطور عما إذا كان هذا النوع من العمى أو العرج يمكن شفاء هما بالعلم المعروف لدى البشر ؟ ووجد أن التشخيص غير مقنع ، لأنه فى حالة الأعمى ، القدرة على الابصار لم تكن قد فقدت تماماً ، ولهذا يمكن إعادة البصر بإزالة العوائق . أما فى الحالة الثانية فيمكن إعادة العرج إلى وضعه الطبيعى ، لهذا فقد قرر الإمبراطور أنه لا يفقد شيئاً، ولكنه قد يكسب لأن النجاح مؤكد .(١)

النموذج الثاني : وهو عن قصة جديرة بالمحلاظة ذكرها الكردينال دى ريتز Cardinal de Retz فى مذكراته :

« حينما هرب هذا السياسى إلى أسبانيا كى يبتعد عن اضطهاد وتعذيب أعداءه مر عبر سارجوسا Saragossa عاصمة أراجون، وفى الكنيسة شاهد رجلاً كان يعمل حارساً لمدة سبع سنوات، وكان معروفاً بأنه بقدم واحدة Wanting a leg ، ولكن الكردينال أكد أنه رآه بقدمين .

وقد زاع صيت هذه القصه بحيث أصبحت - بعد فتره - على لسان كل البشر فى المدينة ، حتى وصلت إلى درجة الإعجاز .

أما هيوم فهو يرى أن هذا البرهان يحمل بطلانه فى داخله عند مواجهته(٢) .

---

(1) The passage in fact occuss in the Histories . Book iv . ch.81.

(2) Hume : Enquiry . p.129., De Retz. vol I. p.550. Hume's phi of Belief. p.184-185.

النموذج الثالث : وهو عن المعجزات العديدة التى قيل أنها وجدت مؤخراً فى فرنسا حول قبر رئيس دير باريس ، الكاهن المسيحى الشهير الذى خدع البشر لفترة طويلة .

شفاء المريض ، عودة السمع للأصم ، عودة الابصار للأعمى، أو فاقدى البصر ، هذه المعجزات هى حديث الناس فى كل مكان بوصفها نتائج طبيعية لهذا الضريح المقدس .

يرى هيوم أن اليسوعيين رغم كونهم يمثلون الهيئة المثقفه، وهم أعداء جداً لتلك الآراء التى تؤيد مثل هذه الأعاجيب، إلا أنهم لم يستطعوا الوقوف ضد تيار هذه المعجزات أو رفضها .

- كان هيوم فى فرنسا أثناء زيوع هذه القصص ، لهذا اكتب مقالاً طويلاً تحدث فيه باسهاب عن نقاط كان قد تناولها باختصار فى النص الأصلى، وفى هذا المقال عقد هيوم مقارنة بين معجزات السيد المسيح ، وتلك التى جاءت عن طريق صاحب هذا الضريح ، وذلك فى ثلاث أجزاء تحت عنوان :

(Recucil des miracles de l, Abbe paris) وخلاصة هذا المقال هو أنه علينا مواجهة مثل هذه الشهادات الباهتة والمعتمة ، وذلك بالاعتراف بالاستحالة المطلقة لطبيعة الأحداث التى تروى بوصفها أحداث إعجازية ، وذلك لأن الشرارة الصغيرة ربما تتحول إلى لهب عظيم لأن المواد دائماً جاهزة لتحقيق هذا .

النموذج الرابع :

• إفترض المؤرخون أن العالم قد أظلم لمدة ثمان أيام بداية من أول يناير عام ألف وستمائه ١٦٠٠، وظل هذا الحدث الغير عادى قوياً بين

البشر حتى أن كل من عاد من الأقطار الأخرى قدم تعليلاً لنفس الحدث دون تناقض .

ومن الواضح أن فلاسفتنا الحاليين استقبلوا هذا الحدث كشىء مؤكد غير مشكوك فيه، وبدأوا فى البحث عن الأسباب التى ربما تشتق من هذا الحدث .

أما هيوم فيرى أن انحلال وفساد الطبيعة أمر ممكن والقياسات على ذلك كثيرة ، فهو يتحدث عن الإخفاق المحتمل لضوء الشمس ، القمر ، والنجوم كأكثر الظواهر دليلاً على الإنحلال والفساد .

– كذلك إفترض أن المؤرخين اتفقوا على أن أول يناير ١٦٠٠ ماتت الملكة اليزابيث ، ثم عادت إلى الحياة مرة أخرى بعد شهر من وفاتها، حيث شوهدت مع حاشيتها، وزاع هذا فى البرلمان، وأنها أيضاً استردت العرش بعد تخليها عنه، وحكمت إنجلترا لمدة ثلاث سنوات .

يقول هيوم :

– فى هذه الحالة على أن أندهش وأتعجب من التوافق لهذه الظروف الغريبة، ولكن لا يجب أن يصل هذا التعجب إلى درجة التصديق فى مثل هذا الحدث .

« مازلت أقول أن خبث وحماقة وجهل البشر أصبح ظاهرة عامة، لدرجة الاعتقاد أن هذه الاحداث الأكثر إثارة وخرقاً للطبيعة قد نتجت عن هذا الجهل، عن أن تكون خرقاً لقوانين الطبيعة » [1]

---

(1) Hume : Enquiry ch.x.p133.

الخلاصة : أنه ، لا برهان أو دليل بشرى كاف لإثبات المعجزة، وجعلها أساساً كافياً لأى نسق دينى، كما أن العقل المجرد ليس كافياً لإقناعنا بمعجزات الدين المسيحى . التجربة وحدها هى التى تجعلنا نثق فى قوانين الطبيعة ، وكل دليل على وجود إطراد الطبيعة يجب أن يقوض أى دليل للاستثناءات الإعجازية .

ومن يتحرك بالاعتقاد ليذعن له ، لهو واعى بمعجزة مستمرة فى شخصه تدمر كل مبادىء الفهم، وتقدم له تحديداً للإعتقاد فيما هو مناقض للعادة والتجربة [1] .

إعتراضات وردود حول تصور المعجزة عن هيوم

عرض هيوم لموقفه من المعجزة - كما أوضحنا - فى جزأين .

الجزء الأول ، الذى يسمح بالإمكانية النظرية لتأسيس حدوث المعجزة، وهذا يتعارض مع ما جاء فى الجزء الثانى ، الذى يصف المعجزة بأنها فكرة كاذبة أو باطلة لا يمكن صياغتها فى مبدأ Pseude - Concept، وينتهى إلى الاستحالة المطلقة للأحداث المعجزية .

وفيما يتعلق بالجزء الأول علينا أن نتذكر أن الجدل الذى دار حوله هو جدل دفاعى من الدرجة الأولى، بمعنى أن هيوم قد يتعامل مع بعض الافتراضات دون أن يكون مؤهلاً لقبولها . ومن ناحية أخرى ، نلاحظ أنه على الرغم من أن هيوم نبذ القصص بوصفها عبث وسذاجة ، إلا أنه ما زال حريصاً على ألا يستدل من هذا أن هذه الأحداث الإعجازية غير

---

(1) Alburey Castell : An introduction to modern ph . Section2 Hume . Doubts about Natural theology. p22

مفهومة تماماً أو متناقضة ذاتياً .[١]

يرى هيوم أن «تايلور» لم يكن صادقاً تماماً حينما سأل نفسه : ماذا يعنى هيوم بحديثه عن « عدم معقولية خرق قانون الطبيعة » . كما أن تايلور يؤكد فى موضع آخر أن هيوم عليه أن يبرهن ضمناً عما ظهر أنه تم إنجازه بالرجوع إلى « القوانين التى لا يمكن خرقها » [٢]

ويرد هيوم على هذا بأنه لم يتحدث من اللامعقولية أو خرق قانون الطبيعة العام ، كما أن هذه العبارة – inviolable lows – لم ترد فى هذا الجزء، رغم أن تايلور يضعها بين علامات ترقيم .

وحلاً لهذه المشكلة هو أن الاستحالة التى يقصدها هيوم ليست الاستحالة المنطقية ، ولكن الطبيعية . لأن الاستحالة الطبيعية للأحداث هى المحصلة لتعريف كلمة معجزة .

فالمعجزة تعرف بوصفها : إنتهاك لقانون الطبيعة من خلال إرادة خاصة للألوهية أو عن طريق توسط عامل غير مرئى «

ومعيار الاستحالة الطبيعية – التى تخالف الاستحالة المنطقية – هو عدم التوافق المنطقى مع قانون الطبيعة بالمعنى الشامل .

التعليق الثانى على تعريف هيوم ، وهو أن الاستحالة الطبيعية للمعجزة تأتى كنتيجة مباشرة من تعريفها ، هذا التعريف يمكن وصفه بأنه

---

(1)Honderich Antony flew : Hume's ph.of Belief. ch.viii p.186.

(2) [Inquiry : viii (i) 123. n: 115.) A.E. Jaylor : p.348.

جائر وتعسفى، وقد اعترض عليه النقاد المحدثون من عدة وجوه :

كتب أحدهم يقول : « إنه يمكننا حذف « العامل الغير مرئى » من تعريف المعجزة ، وذلك لأنه لا يفوت على أحد أن يعرف أن المعجزة إنما تحدث عن طريق الله وحده » [١]

تعليق آخر يقول : « الإشارة إلى وسائل غير مرئية أخرى تبدو على أنها إسهاب بليغ لا داعى له [٢]

وهنا يتضح أن الإعتراض إنما يوجه إلى تعريف المعجزة، وليس إلى أى مدى تكون قابلة للتصديق .

عرف كلارك Clarke المعجزة فى محاضراته الشهيرة بوصفها عمل يتأثر بطريقة تختلف عن المعتاد أو عن المنهج المنظم للعناية الإلهية ، وذلك إما عن طريق الله ذاته أو عقل أعلى من الإنسان، كى تبرهن على مذهب خاص أو سلطه شخص ما .

ناقد آخر يقول : إن تعريف هيوم غير مرض لأنه يفتقر إلى شرط وجود الشهود « المعجزة ربما يمكن إكتشافها بواسطة البشر أو لا ، والحدث الاعجازى لابد أن يحمل فى داخله طابع أخلاقى ، بمعنى أن يرتبط قيمياً بالتعليم » .

هذه التعليقات لم تستطع أن تفى بالغرض الأساسى عند هيوم وهو إمكانية إثبات أن المعجزة تصلح كأساس للنسق الدينى، وتؤدى إلى موافقة للكشف الإلهى .

---

(1) Downey : p 227 (From Hum's ph. of Belief . p.188)

(2) Ibid p.188.189

(3) Cameron .p293.

أكد « كاميرون » أن الهدف الاساسى فى نص هيوم يدور حول : « المعجزة هى خرق أو إنتهاك لقوانين الطبيعة » ، والحملة الأساسية لهجومه على المعجزة هى حول إمكانية أن يحدث هذا، إمكانية وجود برهان مقنع للمعجزات، وليس حول إمكانية الأفعال الإلهية الخارقة للطبيعة، أو على بعض الأفعال التى تخضع لتعليم أو تضمن مصداقية معلم . ومن المحتمل أن يكون هذا سبباً فى أن هيوم لم يضع شرط وجود غرض تعليمى، وأيضاً سبب أبعد لتركه مفتوحاً هنا إمكانية حدوث المعجزات عن طريق توسط عامل غير مرئى . (١)

اعتراض آخر على لسان كاميرون، هو عدم إشتراط هيوم لوجود الشهود، وأنه قد تغافل عن مجادلة ميلاد المسيح، وأنه ولد بمعجزة من السيدة العذراء، وطالما أن هذه القصة الإعجازية مازالت موضع تصديق، فإنه من المؤكد عدم إفتراض تأييدها بطريقة مباشرة بشهادة الشهود .

لاحظ « بوتلر » أيضاً أنه يوجد معجزات غير مرئية مثل تجسد المسيح، على سبيل المثال، وهى معجزة سرية لا يسمح بها كبرهان لهذه الرسالة ، لكن هذه المعجزات تستلزم معجزات أخرى مرئية تسبقها كى يمكن إثباتها (٢) .

- أكد تايلور أن هيوم يرى أن كلا من المعجزة والأعجوبة Prodigy يعنى حدث غير عادى، غير متوقع ، بمعنى أنه يجعل الانسان يتعجب أى يقول "oi" هذا التعريف اقتبسه هيوم دون تعديل ، وكتبه فى حاشية مذكراته، ويبدو أنه الأسوأ، لأن

---

(1) A .E .Taylor - p.334-337

(2) Butler : vol . I .p.213

إهتمام هيوم الأساسى ينصب على البرهان لما هو فائق للعادة أو خارق للطبيعة. ويرى تايلور أن هذا الجزء كله - الخاص بالحديث عن المعجزة - زائد Superfluous أو شاذ Bizarre ، ليس فقط الجزء العاشر هو غير ذى جدوى لأغراض البحث، ولكن معالجة هيوم للسؤال الخاص بالبرهان عن المعجزة، الذى هو محور إهتمامه - قد أثبت أنه غير ملائم للسياق العام ، وغير مرتبط بالأمر[1]

أغفل تايلور - مثل كاميرون وآخرون - عن ركيزة هامة بالنسبة لهيوم ، وهى « هل المعجزة يمكن اثباتها كأساس لنسق الدين » ، كذلك فشل تايلور فى فهم ما يتطلبه مثل هذا البرهان .

وإذا كان نقد هيوم لأنه لم يفرق بين نمطين أو معنيين للمعجزة : المعجزة ربما تكون : (١) إما حدث غير عادى ويمكن ضبطه arresting(٢) أو أن تكون حدث ليس بالضرورة غير عادى بوجه خاص، لكنه يوضح الفاعلية المباشرة لله .

والرد على هذا واضح ، فيما يرى هيوم، وأنه لاحدث يسمى معجزة إذا لم يتضمن كلا المعنيين . ولكن - طبقاً لنظرية تايلور الدينية : كيف يكون الحدث غير عادى ومحكم أو مضبوط فى آن واحد ، ويكون من جهة أخرى ليس بالضرورة غير عادى.

- هنا تناقض واضح . وتصور المعجزة كما طرحه تايلور لا يمكن أن يعد قوياً بدرجة كافية ليكون مفتاحاً لنوع البرهان الذى يدور فى مخيلة هيوم .

---

(1) Hume's ph . of Belief . p.190.

- وإذا كانت المعجزة هى تصديق أو ضمان للوحى الإلهى ، فمن الواضح إذن أنها يجب أن تكون فى شكلها الأكثر إتساعاً أكثر من مجرد حدث غير عادى، وإلا فسوف لا يكون لدينا معيار نستطيع أن نميز به الأحداث الإعجازية عن تلك التى تكون مجرد أحداث عادية تحدث فى المجرى العام .

ويشير القديس توما الاكوينى إلى نفس الفقرة التى رددها تايلور وهى أن ما يطلق عليه لفظ معجزة إنما يتم عن طريق فعل الهى يفوق النظام العادى الذى نلاحظه فى الطبيعة .

(Praeter ordnem Communiter observatum in rebus)

يفرق الاكوينى Aquinas بين ثلاث مستويات للمعجزة :

١) المعجزات التى تحدث عن طريق الله ، ولا يمكن للطبيعة القيام بها .

٢) النوع الثانى ، نجد فيه أن الطبيعة يمكن أن تقوم بالمعجزات ولكن ليس بنفس النظام الذى يقوم به الله .

٣) أما المرتبه الثالثة فهى مليئة بتلك المعجزات التى تتم بواسطة الله ، وهنا يقوم الله بما تحدثه عمليات الطبيعة ولكن دون اعتماد على المبادىء التى تعمل بها الطبيعة .[1]

اندهش بيرس Peirce بذلك التشابه الموجود بين تعريف الاكوينى للمعجزة، والتعريف الذى أورده هيوم لها ، فهو ببساطه - كما يزعم بيرس - تبنى تعريف الأكوينى، وترجم الكلمة اللاتينية ordo naturae بكلمة

(1) Aquinas (I). BK. III. ch. 101.(From . Hume's ph. of Belief. p.190 .197).

lows of nature أى كلمة نظام الطبيعة بمصطلح قوانين الطبيعة ، هذه الكلمة التى أصبحت معروفه ومتداولة فى انجلترا على مدى أكثر من جيلين [1]

لكن الاستخدام الأمثل لمصطلح قوانين الطبيعة هو بالفعل مصطلح حديث ، وإذا كان بيرس يحاول أن ينسب إلى هيوم كونه على علم مباشر بكتابات الاكوينى ، فإنه قد جانبه الصواب، لأن هيوم - على الأكثر - تعرف علـى بعض الفقرات التى كتبها الاكوينى من خلال كلا من بيل Bayle ، مالبرانش .

يقول بيل : « نفترض أنه عندما تحدث المعجزات ، فإننا نلاحظ أن القوانين العامة التى نعرفها قد حدث بها استثناء » .

يقدم دونى Downey اعتراضاً اكثر قوة حيث يقول :

« إن معظم اللاهوتيين يبذلون قصارى جهدهم لتوضيح أن المعجزة ليست إنتهاكاً لقوانين الطبيعة، بل هى نتيجة ملموسة صنعها الله بطريقة تفوق المجرى المعتاد للطبيعة ، وهذا التعريف يطابق إلى حد كبير تعريف الاكوينى للمعجزة ، حيث خصص فصلاً كاملاً يعلن فيه أن الأشياء التى يصنعها الله ، والتى تفوق نظام الطبيعة ليست أعمالاً مضادة للطبيعة contra - naturum وإتجاه الاكوينى هو أن هذه الاستثناءات لا ينظر إليها بوصفها خرق للقوانين الطبيعية، وذلك لأنها لا تكسر النظام الكهنوتى الأساسى .

ويمضى لويس c.s.Lewis فى كتابه عن المعجزات فى نفس الاتجاه

---

(1) Ibid.p.191(peirce : Book 2 . p 315)

(2) Bayle. vol . iv. p.264

حيث يؤكد أنه : « ليس من الدقة أن نعرف المعجزة بوصفها خرق لقوانين الطبيعة، إنها ليست كذلك ، المعجزة رغم كونها تحدث بطريقة تفوق الطبيعة، إلا أنها تسمح بنتائج طبيعية تماماً، وهى تتداخل مع الطبيعة ، تماماً مثل أى حدث آخر .

- هذا التعريف الذى قدمه لويس للمعجزة يعد محاولة غير مقبولة فيما يرى هيوم ، فالمعجزة إذا لم تكن خرق أو إنتهاك لقوانين الطبيعة لا تستحق أن يطلق عليها هذا الاسم .

أما مجهودات علماء الدين ورجال اللاهوت فى أن يظهروا أن هذه الخوارق لا تتضمن شذوذاً مطلقاً، فإنهم بهذا يفترضون سلفاً هذا الطابع الاستثنائى والمبتذل للأحداث الاعجازية .

- يرى ميدلتون Middleton - أحد معاصرى هيوم فى القرن الثامن عشر- أن هيوم كان مخطئاً ومبالغاً فى تقرير مبادئه الشكية العالية، وثقته الدجماطيقية فى أنه يعرف كل شىء عما هو ممكن وغير ممكن بالنسبة لقوانين الطبيعة .

نشر ميدلتون كتابه : البحث الحر Free Inquiry الذى ظهر فى نفس العام الذى نشر فيه هيوم كتابه مقالات فلسفية Philosophical Essays ويذكر ميدلتون فى كتابه هذه القصة :

قام هنيرك الهمجى المدمر - الأمير المسيحى لجماعة الآريين فى أفريقيا - بقطع ألسنة هذه الجماعة حتى لا تستطيع الحديث، ولكن المدهش حقاً أن العناية الإلهية جعلتهم قادرين على الحديث بفصاحة ووضوح دون ألسنة، وهكذا استمر الحزب المسيحى الارثوزكسى فى نشر مذهبه »

مثال آخر مشابه فى هذا القرن :

« ولدت فتاة دون لسان، ومع ذلك فهى تتحدث بسهولة ووضوح كما

لوكانت تتمتع بكل مزايا هذا العضو . ويشير ميدلتون هنا إلى فحص هذه الحالة فى مذكرات أكاديمية العلوم الصادرة ١٧١٨، وقد قام أحد الأطباء بفحص فم الفتاه ، من أجل أن يتبين بأى وسيلة يتم الحديث دون مساعدة اللسان، وأضاف ميدلتون :

« أنه فى مثل هذه الحالة لا يوجد أى تساؤل مباشر للتدخل الدينى » [١].

ويعلق هيوم على هذا بقوله : « أن الحكم على هذه المعجزة المزعومة اعتمد فى تصديقه على جهلنا بقوى الطبيعة » ثم يستعرض الخلاصة أو النتيجة التى تتضمن عنها المناظرة كلها فيقول :

« لا شهادة أو دليل من أى نوع للمعجزة يستطيع أن يرقى إلى الاحتمال أو إمكانية الحدوث .

ويمكن القول بأنه كقاعدة عامة : ليس هناك حجة أو برهان بشرى له من القوة بحيث يبرهن على حدوث معجزة ، ويجعلها أساساً لأى نسق دينى معين . هذا ويبذل هيوم مجهوداً خاصاً ليؤكد الفقرة الأخيرة حيث يقول : « أتمنى أن تكونوا قد أدركتم أنه لا يمكن بأى شكل من الأشكال إقرار أى معجزة كأساس لأى دين .» *

---

(1)Middelton : Free Inquiry p.183-186.

* He now reviews the upshot of the argument of the whole section so far : " no testimony for any kind of miracle have ever amounted to aprobability. and we may establish it as amaxim that human testimony can have such force as to prove amiracle, and make it a just foundation for any such system of religion . " [Hume : Inquiry .p .132 , Hume's ph.of Belief . p . 200]

- يبدو أن ما نادى به هيوم قد تم تجاهله من قبل العالم بأسره .

عود إلى المنهج التجريبى :

يقول هيوم : « أنا سعيد جداً بمنهج التفكير المتبع هنا ، فهو يساعدنا على أن نقلق هؤلاء الأصدقاء أو الأعداء المتنكرين للدين المسيحى ، الذين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن الدين بمبادىء العقل وحده .

ويؤكد هيوم أن « بيكون » قد تبنى نفس المنهج ، يقول بيكون : « علينا أن نعمل تاريخ خاص لكل الغرائب والاعاجيب الهائلة ، نعمل تاريخ لكل ما هو نادر وخارق للطبيعة، وهذا لابد أن يتم بكل دقة وتمحيص حتى لا ننزل إلى الخطأ والوهم، ونبتعد عن الحقيقة . كل علاقة يجب أن ينظر إليها نظرة شك، كل ما هو موجود فى كتابات السحر الطبيعى، الكيمياء ، أو لدى المؤلفين الذين لديهم رغبه شديدة تجاه الزيف والخزعبلات والخرافة .[١]

وبعد : يطلب هيوم منا ألا ننظر إلى أسفار موسى الخمسة Pentateuch باعتبارها كلمة الله أو شهادته نفسها، ولكنها مجرد إرهاصات لكاتب أو مؤرخ إنسانى فقط . علينا أن ننظر إلى الكتاب الماثل أمامنا بوصفه نتاج بشر غير متحضر ، جاهل ، كتب فى عصر كان فيه البشر أكثر جهلاً ، فهو على أية حال بعيد عن الحقيقة، وبقراءة هذا الكتاب نجده ملىء بالاعاجيب والمعجزات وهو يعطى تقريراً من حالة للعالم والطبيعة البشرية بعيدة تماماً عن الحالة الحالية . فمثلاً عمر الانسان يمتد إلى ما يقرب من الاف السنين ، العالم يتحطم بالطوفان ، الاختيار الأعمى والتعسفى لشعب واحد بوصفه المفضل من السماء .

---

(1) Bacon : Nov. organ : cib . il.oph.29.

وما يقال عن المعجزات يقال أيضاً عن النبوءات prophecies ، الخلاصة أن الدين المسيحى يقينى فقط من خلال ما فيه من معجزات والديانة المسيحية فى جوهرها تعتمد أساساً على تصديق المعجزة .

وهنا يصل هيوم إلى الخاتمة التهكمية للبحث وهى أن المعجزة بوصفها خرق أو إنتهاك لقانون الطبيعة مستحيلة الحدوث سواء من الناحية المنطقية أو الطبيعية لأن القوانين لا تحمل استثناءات . ونحن لا نستطيع – كما قال مل – أن نعترف بفرض ما بوصفه قانون الطبيعة ، ثم نعتقد فى حقيقة أخرى تناقض الفرض الأول . خرق قانون الطبيعة هو تناقض ذاتى فيما يرى هيوم .

هل يوجد اطراد فى الطبيعة ؟ الاجابة نعم . هذه الاجابة نفسها تستخدم كأساس للإجابة « بلا » أو النفى على التساؤل : هل المعجزات تحدث ؟

وبهذا يتضح لنا أن إطراد الطبيعة هو الأساس الذى بنى عليه رفضه للمعجزة واستحالة حدوثها بوصفها خرق لهذا القانون .

الدين الأكثر تقديساً بالنسبة لنا هو الدين الذى يؤسس على الاعتقاد وليس العقل . *

وإذا كان الاعتقاد فى الله يعتمد فى جزء منه على الاعتقاد فى المعجزات والاعتقاد فى المعجزات يعتمد – كما أوضح هيوم – على أسس مشكوك فيها، فالنتيجة لهذا أن الاعتقاد فى الله بوصفه مؤسس على الاعتقاد فى المعجزات مشكوك فيه (قابل للشك) .

---

*our most holy religion is founded on faith not on Reoson.

هـذا وقـد توقـف مـوقـف هيـوم إلـى هـذا الحـد، وتبـعـه تومـاس هكسلى مؤرخه ، فى القرن التالى له ، حيث رأى أيضاً أن المعجزات هى أحد البراهين الغامضة أو المبهمة على وجود الله ، وقد وصفها أنها تمنح لفئه خاصة من البشر على حساب الآخرين ، وهى بهذا المعنى تتعارض مع الخير الإلهى الشامل ويستطرد هسكلى فيقول إن المعجزة لا تمدنا ببرهان قاطع أو نهائى وحينما يكون البرهان غامض، فمن الأجدى حذفه أو إغفاله .[1]

(1) Alburey Castell : - An introduction to modern ph. p.22

خاتمه نقديه : مناقشه وتقييم

- رأينا فى ثنايا هذا البحث إلى أى حد تعد إشكالية الدين بعيدة عن النظر العقلى ، وقد يبدو لنا من هذا - للوهلة الأولى - أن هيوم ضد الدين ، ولكن الواقع ليس كذلك ، لأنه رغم حملته االشهيرة على الأدلة العقلية على وجود الله ، إلا أنه أقر أن للدين منزلة فى قلب كل انسان، والدين مجاله الاعتقاد أو الايمان الدينى ، وليس الاستدلال العقلى. كما أن نقد هيوم وشكوكه حول الدين لا يتعلق بوجود الله، لأن ذلك قضية بديهية لا يتطرق إليها الشك ، ولكن هذه الشكوك إنما هى حول ماهية الله وطبيعته التى يرى هيوم أن معرفتنا بها أمر عسير - إن لم يكن مستحيل - ومن العبث أن نبذل جهداً فى هذا السبيل .

شارك هيوم بيكون وهوبز فى أنه لا يمكن أن تقوم معرفة برهانية عن الله ، ولكنه لم يشاطرهم موقفهم فى استبعادهم للإعتقاد فى الاله فى المجال الخارق للطبيعة تماماً . وبدلاً من ذلك حاول أن يضع الحد الأدنى من مذهب الألوهية الفلسفى الذى يكفله المنهج التجريبى . وهكذا إتخذ موقفاً وسطاً بين لا أدرية بيكون وهوبز الفلسفية التامة ، وبين جهود لوك وباركلى لتقديم برهان على وجود الله .

وقد كان هيوم متفقاً مع لوك على الأصل التجريبى لفكرة الله من ناحية، ولأنه كان يشك فى إمكان إقامة أى برهان وجودى أو سببى من ناحية أخرى ، وذلك لأن فكرة الله لا تستثنى من القاعدة التجريبية التى ترجع أفكارنا جميعاً إلى انطباع حسى أصيل .

استخدم هيوم الأصل التجريبى لفكرة الله ، وذلك كى يوجه نقداً جذرياً لوظيفة الإله فى المذاهب العقلية ، تبرير ديكارت للإحساس، نزعة مالبرانش الاتفاقية ، إهابة اسبينوزا وليبنتز بقدرة الإله السببية .

- البرهان البعدى posteriori على وجود الله غير متحقق أيضاً لأنه يؤدى إلى الاحتمال .
- إعتمد هيوم فى نقده لهذه الأدلة على المنهج التجريبى وحده ولكننا نرى أن هذا المنهج - باعتراف هيوم نفسه - هو منهج إحتمالى بمعنى أن هذا المنهج الذى نستمد منه كل معارفنا وملاحظتنا ليس منزهاً عن الخطأ، وسيكون من المبالغة أن نحكم على قضية الدين بأكملها فى ضوء تصور إطراد الطبيعة كما زعم هيوم .
- أقر هيوم فى نقده لبرهان الغائية أنه لابد أن تكون المماثلة كاملة بين الله والصانع الانسانى، فما دام الصانع الإنسانى يصنع بيديه ويجوز فيه التعدد، فليكن ذلك جائزاً فى حق الله أيضاً، حتى تكون المقايسة من كل وجه، وهو ما يتنافى مع الكمال الإلهى .

ونحن نتساءل

من ذا الذى زعم أن المقايسة لا تجوز إلا إذا كانت كاملة من كل وجه؟ المقايسة هنا لا يعنى بها أكثر من تقريب فكرة الغائية . فإذا كان الكرسى أو المكتب مثلاً تظهر غايته بتصور موافقة هيئته لوجوه إستعماله، فإن ذلك يقتضى صانعاً، فما بالنا بالكون الكبير بكل ما نعلمه من حكمه وغاياته ، أليس أجدر بالحاجة إلى الصانع ؟مع ملاحظة أن بين الصانعين من الفوارق الهائله والحدود الفاصلة ما ينبغى أن يتصور بين النهائى الناقص واللانهائى الكامل .

أما برهان العليه (أو فكره واجب الوجود أو الوجود الضرورى) التى رأى هيوم أنها فكرة زائدة وخيالاً صرفاً ، فهى ليست كذلك ، ، بل هى ضرورة منطقية لتفادى الكثير من المشكلات التى يقف العقل البشرى أمامها عاجزاً .

أما عن الشر الموجود في العالم ، وهل هو من خلق الانسان أم أنه من خلق الله ، ولو كان كذلك فهو يتنافى مع حكمة وكمال الله كما زعم هيوم ، فمر دود عليه – كما سبق أن أوضحنا، بأن هذه القضية لا تتنافى مطلقاً مع حكمة التدبير أوتتعارض مع كمال النظام لأن الشر أمر نسبى ووجوده ضرورة إلى جانب الخير .

أما عن المعجزة التى تظهر على أيدى الأنبياء ، وتثبت بها الألوهية أو تعد دليلاً على وجود الله، فإننا نستطيع أن نقول أن موقف هيوم متأرجح بين قبوله لها تمشياً مع رفضه لفكرة السببية، وبين رفضه القول بوقوعها لأن العقل الإنسانى يميل إلى اتساق النظام، فليس هناك ما يدعو إلى كسر هذا النظام بتقرير وقوع المعجزة وخوارق العادات .

– كان متوقعاً من هيوم أن يفسح مكاناً رحيباً للمعجزات، إذ أن فكرة المعجزة قائمة على جواز تخلف السببية، وخرق القانون ، ولكنه ما لبث أن استنكر القول بوقوعها بحجة أن العقل إنما يميل إلى إتساق النظام، وهى حجة ضعيفة لا تصلح مطلقاً لتبرير هذا الفصل المتعسف بين دائرة الإمكان العقلى ودائرة الواقع الفعلى . فما دامت المعجزة ممكنه الوقوع ، فماذا يمنع العقل إذن من قبول خرق النظام أحياناً ، لاسيما وقد أسقط من حسابه فكرة الضرورة .

– ونحن نتساءل : لماذا تعتبر المعجزة كسراً لنظام الطبيعة بناءً

على نظرية هيوم ؟ أليس يدعونا إلى إعتبار كل حادثة إدراكاً جديداً لا علاقة له بما سبقها من حوادث ؟ وعلى ذلك يكون الحادث الذى يسميه هو كسراً للنظام المعهود مجرد إدراك جديد لا يتصل بالحالة السابقة له ، إنما حقيقة صادفناها فى مجرى الحياة العملية .

- إضافة إلى ذلك ، إذا كانت معلوماتنا التى نستمدها من التجربة - كما تصور هيوم - هى مجرد احساسات مفككة وانطباعات متناثرة لا يرتبط بعضها ببعض فى نظام ، فأين هذا النظام الموجود فى الطبيعة حتى تأتى المعجزة وتعمل على كسره .

- احتج هيوم على صدق المعجزات ، وأن عدداً كبيراً من العقلاء قد آمنوا بها فعلاً ، وأن سجلات التاريخ أو شهادة الشهود التى يثق بها البعض ، والتى احتفظت لنا بهذه الحوادث باعتبارها وقائع فعلية ثابتة، لايمكن إعتبارها مبرراً كافياً للتصديق. ولسنا نملك الوسيلة لتقرير ما إذا كانت مثل هذه الحوادث نتيجة محتومة لقضاء إلهى لا مرد له أم أنها محض إتفاق ، والخبرة المتكررة وحدها هى التى تبين لنا ذلك ، غير أن هذه الخبرة المتكررة لحادثة ما تتناقض مع كونها معجزة بالفعل .

ويلاحظ « رودلف أوتو » أن التقدم الصاعد لتطور الدين يكشف عن الإلغاء التدريجى للمعجزة ، بحيث أنه فى اكثر المستويات الدينية استنارة تبدأ المعجزة فى الأنزواء بعيداً ». [1]

---

(1) Rudolf oto: " the idea of the Holy Translated byJohn.w.Harvey oxford univeristy press. london 1923 .p.64.

- ويؤكد مارتن لوثر هذا المعنى برفض المعجزة الخارقة للعادة بوصفه لها أنها لا تعدو أن تكون حيلة من الحيل . وأن الدليل الذى يقنع من يجهل قوانين الحوادث قد يبدو واهياً تماماً لمن هو على درجة كافية من المعرفة ، وقد سادت المعجزات فى عصور سادتها الخرافات، ومن ثم تصبح قيمة المعجزات موضع شك وريبة . أليست كثرة الروايات المتعلقة بالمعجزات ترجع الى عصر ما قبل العلم، وتكشف عن مجرد خيال تقى أو، تظهر من حيث هى رموز إيمانية ؟

- ويؤكد كامبل هذا المعنى بقوله : « أن تقبل أى حدث بوصفه ذا طبيعة إعجازية هو أن تتخلى عن توضيحه بطريقة علمية . التوسطات الاعجازية interpostions يمكن معرفتها فقط بالتخمين أو الظن وبعون الإعتقاد أو الإيمان، لكن ما يعرف هكذا لا يمكن بأى معنى علمى أن يعرف على الاطلاق.

لكننا نرى – من ناحية أخرى – أن المعجزة لا تتعارض مع القانون الطبيعى . ويؤكد هو كنز هذا بقوله : أن المعجزة هى التطبيق المباشر لفاعلية أسمى تحدث معلولاً لا تكون الفاعلية الطبيعية قادرة على إحداثه . وهذا يتفق إلى حد كبير مع تصور أوغسطين للمعجزة ، حيث يرى أن المعجزة لا تكون خارقة للطبيعة بل تكون خارقة لما نعرفه عن الطبيعة، وحجته فى ذلك أن الله لا يفعل شيئاً ضد الطبيعة ، ولا ينقض القوانين التى رتبها . [1]

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط . دار المعارف . القاهرة ١٩٥٧ . ص ٣٨ .

- عرف هيوم المعجزة بأنها « إنحراف للطبيعة مستحيل الحدوث » ولم ير أية معقولية فى تصديق الإنسان لصحة المعجزات، وذلك استناداً الى قانون إطراد الطبيعة ، كذلك لم ير فى التاريخ بأسره معجزة قد نالت تأييد أناس كانوا على قدر من رجاحة العقل ، وحتى الشعوب المتحضرة فإنها قد ورثت هذه المعجزات عن أسلافها الجهلة .

- إذا كانت الديانات على إختلافها تلجأ إلى المعجزات تدعيماً لدعاويها ، فإنها تشكك بذلك فى معجزات العقائد الأخرى ، وبذلك تشكك أيضاً فى عقائدها الخاصة .

ونحن نتساءل : ما مدى معقولية هذا التصور ؟

نجيب على هذا فنقول أن نقد هيوم للمعجزة ينتج عنه نتيجتين بينهما مفارقة .

١- ليس من المستحيل أن يحدث مستقبلاً ما يناقض تماماً الخبرة السابقة .

٢- من ناحية أخرى لدينا الدليل - فى حالات معينة - على أنه لا شىء يحدث مستقبلاً مناقضاً لخبرتنا السابقة .

- وفى إعتراض هيوم على المعجزة تكمن صعوبة : كى نبرهن على بطلان قانون من قوانين الطبيعة ، علينا أن نعثر على حالة سلبية تكون إستثناء لهذا القانون ، وإذن سوف لا يصبح القانون المزعوم قانوناً ما .

إنه لو كانت المعجزة استثناء للقانون لا نهدم القانون فعلاً . وتلك هى النقيضة فى تحديد هيوم للمعجزة، وفى هذا قضاء عليها بالإحباط . فما تنجح معجزة ما حتى يتبين لنا أنه لم يكن هناك قانون على الاطلاق حتى ينقض .

- ودفع هذا الإعتراض يتم ببيان أن « الحالة السلبية » للقانون العام ليست هى الحالة الفريدة ، ولكنها الحادثه القابلة للتكرار ، أو بعبارة أخرى هى القانون الطبيعى فى مجال آخر .

والخلاصة أن المعجزات ليست حوادث تجريبية قابلة للتكرار وهى ليست قوانين محدوده المجال، وبالتالى لا علاقة لها بكسر قوانين الطبيعة ، ولا هدم القوانين العامة .

وإذا كان هيوم قد إقتصر فى تفسيره للمعجزة على المجال الفيزيقى الطبيعى ، فإننا نقول أن هذا خطأ لأنه يؤدى إلى الخلط بين مجاليين أو نظامين متباينين : النظام الإلهى الازلى ، النظام الزمانى المكانى .

وفى تقديم أدلة فيزيقية على أمور روحية هبوط بالدين إلى مستوى مادى (١) .

- كذلك افتراض حدوث المعجزة ليس - كما إدعى هيوم - سبباً كافياً للتخلى عن القانون الطبيعى . والنظرة الدينية للمعجزة تؤكد هذا . فالاعتقاد فى المعجزات وخوارق العادات لايتنافى مع صحة المعتقد وسلامته . كذلك المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلاً كما أقر هيوم ، وإشكال المعجزة لا يمكن أن يحسم إلا فى ضوء علاقة المعجزة بالقدرة الإلهية المطلقة .

أخيراً :

انكر هيوم المعجزة وإمكان حدوثها بناءً على كذب الرواة وتناقض شهادة الشهود ، ولكننا نرى خلافاً لهذا أن القصص الموجودة فى القرآن

(١) ستيس . والتر : الزمان والأزل . ترجمة د. فؤاد زكريا ص ١٨٠ : ١٨١

هى قصص حقيقية . وعلينا أن نفرق بين معجزات جاءت على لسان الرسل والأنبياء، ومن هنا فتصديقنا لها يتم بناءً على تصديقنا لهذه الرسل، وبين كرامات جاءت على لسان البشر .

- لقد أشار القرآن الكريم فى مواضع كثيرة إلى معجزات الأنبياء السابقين منذ نوح وحتى عيسى عليهما السلام .

وقد كانت المعجزات السابقة على الإسلام - معجزات الأنبياء السابقة حسية ، ومعجزات محمد (ص) معنوية .

فمعجزة ابراهيم كانت ناراً موقدة وصارت برداً وسلاماً ، ومعجزة موسى عليه السلام كانت عصا صارت حية، كذلك معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وإنزال مائدة من السماء ، بل كانت ولادته ذاتها معجزة حسية إذ ولد بغير أب ، وتكلم فى المهد صبياً .

إذ قال : « إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والذكاه مادمت حياً ، وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً،والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً [١] .

- ومعجزات الأنبياء السابقين لا يعلم وقوعها على وجه اليقين إلا من القرآن ، فهو الذى سجل معجزات نوح ، ابراهيم ، موسى ، وعيسى عليهم السلام .

أما معجزة محمد عليه السلام فكانت القرآن ، تلك المعجزة الخالدة ، الذى يتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بمثله :

---

(١) مريم : آية ٣٠ : ٣٣

قال تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وأدعو شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين [١]

وقرر الله أن البشر يعجزون أن يأتوا بمثله :

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً [٢]

هذا وقد أجرى الله تعالى على يدى محمد خوارق عادات أخرى مثل إخباره عن بعض ما يغيب عن حسه، ومثل حنين الجذع إليه، بكاء الناقه عنده، الإسراء والمعراج .... هذه الأخبار ومثلها ليدل على منزله القرآن وعلى أنه المعجزة الكبرى ، وأنه المرجع المتبع الذى يشتمل على شرائع الإسلام كلها ، وهو الحكم بين الناس . ما من خبر إلا وله أصل فى القرآن .

« ما فرطنا فى الكتاب من شئ »[٣] .

وقبل أن ننهى حديثنا عن المعجزة نود أن نوضح حقيقة هامة هى أن الإسلام بإعتباره ختام الرسالات لم يؤسس على المعجزات ، بقدر ما جاء ليخاطب العقل والفطرة السليمة . لم يكن القصد من المعجزات الكشف عن سلطان الأنبياء ، طالما أنها عمل إلهى . وقد نظر الإسلام إلى طالبى

---

(١) البقرة : آية ٣٢

(٢) الإسراء . آية ٨٨.

(٣) راجع هنا : القرآن : المعجزة الكبرى . الامام . محمد أبو زهره . دار الفكر العربى . ص ٩ : ١٦ ، إعجاز القرآن ببيانه ص ٦٦ ، وجود الاعجاز ص ٨٧ : ٩١ ، قصص القرآن حكاية لأمور واقعيه ص ١٦٢ : ١٨٦ ، الاعجاز بذكر الغيب ص ٣٣٩ ، معجزات الرسل . ص ٤١٨ .

– د . عبد الحليم محمود : دلائل النبوة ومعجزات الرسول : الفصل السابع . المعجزة ص ٢١٣ : ٢٨٣ .

المعجزة الخارقة للعادة بأنهم جهالة وفاقدى الفطرة السليمة .

- المعجزة لا تأتى لتحقيق الإيمان ، بل إن الإيمان ليتم بإرادة الله

« إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء » *

« وما نرسل الآيات إلا تخويفاً » *

« وما تغنى الأيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » *

- كذلك دعوى الأنبياء صريحة فى نسبة معجزاتهم إلى الله

« وما كان لرسول أن يأتى بآيه إلا بأذن الله » . *

من هذا يتبين لنا أن المعجزات وإن كانت تأتى على أيدى الرسل ، فهى رهن بالمشيئة الإلهيه، وبهذا المعنى فالمعجزة لا يمكن أن تحدث عبثاً ولغير ضرورة، وهى أيضاً ممكنة الحدوث وفق حكمة وإرادة إلهية .

- كذلك : الإعتقاد بالله يسبق الأعتقاد بالنبوات أو المعجزات . ولا يمكن الإيمان بالرسل أو المعجزات إلا بعد الإيمان أولاً بالله .

- على هذا فالإسلام دين المعجزات التى يراها العقل لا دين المعجزات التى تتصادم معه ، وتضطره إلى التسليم .

ويبقى أن نقول أن القرآن الذى هو المعجزة الخالدة ، الصالحة لكل زمان ومكان ، هذا القرآن الذى عجز العرب عن الإيتان بمثله لهو أعجب فى الأية ، وأوضح فى الدلالة من إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص [١] .

(*) القصص : آيه ٥٦ (*) الإسراء : آيه ٥٩ (*) يونس : آيه ١٠١ (*) الرعد : آيه ٣٩

(١) راجع هنا :

- العراقى محمد عاطف : النزعة العقليه فى فلسفة ابن رشد . دارالمعارف ط٤ ١٩٨٤ : الفصل الرابع من الباب الخامس : القرآن المعجزة الحقيقية ص ٣٥٢ : ٣٥٨ .
- العقاد عباس محمود : إبراهيم أبو الأنبياء . دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٦ ص ٢٠٣ .
- محمد عبده : رسالة التوحيد . ص ١٥٠ .
- مصطفى لبيب عبد الغنى : مفهوم المعجزة بين الدين والفلسفة . ص ٤٥ : ٦٢ دار الثقافة .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع الأجنبية :

- المصادر :

1) Hume (D) : A Treatise of Human Nature:
Being an attempt to introduce the experimental Method of Reasoning into moral subjects.

2) Hume (D) : An Inquiry concerning
Human understanding ed . charles. Hendel

3) Hume (D.) : Theory of Knowledg:
Containg the inquiry concerning Human understanding . The Abstract , and the selected passages from Book 1 of A Treatise. Edited by : D.C. galden - Thomson. prof of ph. university of Virginia , Nelson,.

4) Hume (D.) : Dialogues concerning Natural Religion edited by Bruce M' Ewen. and edited 2 by N.K. smith,1947.

ثانياً : المراجع : .

1) A.E.Taylor : Philosophcal studies
Hume and the Miracles.1927.

2) A.J.Ayer: Hume : Past Masters. oxford university press .General Thomas, 1980.ch. I,II,iV,V: (Aimes and Methods p. 1:34) cause and effect p. 55:74. , Religion p.75:96.

3) Alburey castell : An introduction to modern philosophy, . in eight philosophical problems Macmillan publishing Co, inc, New york. London. Third edition,1976. section II : Hume (D) . Doubts about . Natural theology , p.19:32

4) A. Flew : Miracles (From the encyclopedia of philosophy

5) Barry stroud : Hume : Routledge and Kegon poul. First published . London,1977.

ch. III : Causality and inference from the observed to the unobserved . P.42:67.

ch. iv : Belief and the idea of Neccessary connection, p.68:94.

ch. x : Problems and prospects of Humean Naturalisn, P.219:250.

6) Baldwin, james Mark: Dictionary of philosophy and psychology. 1960. vol II.

7) B.N. Laing : The philosophy of D. HumeLondon,1932.

8) Brandoim's " a Dictionary of Comparative Religion. New. york. London.1942.

9) Ferm , Vergilus ; Encyclopedia of Religion. New york,1945.

10) Frederic platt, charles.H.Kelly. "Miracles" London,1913.

11) George campbell's : A dissertation of Miracles. letter's. .vol . I . N.188.

12) J. Laird , Hume's philosophy of Human Nature,1932.

13) J .Y. T . Greig : Hume : A biography. letters of Hume. 2. vol. Oxford.1932.

14) Howkins : The Essentials of theism . London,1949.

15) Norman Kemp smith : The philosophy of D. Hume London,1949.

16) Otto. Rudolf : " The idea of the Holy " trans. by john. W. Harvey. oxford. universty press. London.1923.

17) Stuart Hampshire : Hume . A symposium. Edited by . D. F. pears. P . L.Gardiner. London . N. Y. st. Martin's press. 1963. ch. vii. (Hume : In Religion)

18) Jod Handerish A ntony Flew:

Hume's philosophy of Belief : A study of his first inquiry . International libarary of ph. and scientific Method. London .N.Y.1945.

ch. viii : Miracles and methodology. p.166:213.

ch. ix : The Religious Hypothesis. p.214:242.

19) T. H. Huxley : Hume : London.1979.

20) W. R . Sorley : A History of English philosophy. London,1920.

ثانياً : المصادر والمراجع العربية :

- المصادر :

القرآن الكريم .

- المراجع :

– د. العراقى محمد عاطف : النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد . دار المعارف ١٩٨٤ .

– العقاد عباس محمود : إبراهيم أبو الأنبياء . دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٦ .

– ريتشارد شاخت : رواد الفلسفة الحديثة (ترجمة : أحمد حمدى محمود) .

– د. ذكى نجيب محمود : ديفيد هيوم . دار المعارف . القاهرة ١٩٥٨ .

– ستيس والتر : الزمان والأزال . (ترجمة د. زكريا إبراهيم) بيروت . ١٩٦٧.

– د. عبد الحليم محمود : دلائل النبوة ومعجزات الرسول . دار الإنسان للنشر .

– د . عثمان أمين : شخصيات ومذاهب فلسفية ، القاهرة . ١٩٤٥ .

– محمد أبو زهرة : القرآن : المعجزة الكبرى . دار الفكر العربى .

– محمد عبده : رسالة فى التوحيد – دار المنار – القاهرة ، بدون تاريخ.

- د. محمد فتحى الشنيطى : هيوم : محـاورات فى الديـن الطبيعى (ترجمة) ١٩٥٦ .

- د. مصطفى لبيب عبد الغنى : مفهـوم المعجزة بين الدين والفلسفـة (ابن رشد) . دار الثقافة-بدون تاريخ .

- د. نازلى إسماعيل حسين : الفلسفة الألمانية . نظرية للعلم . المكتبة القومية . ١٩٨٣ .

- يوسف كـرم : تاريخ الفلسـفـة الأوربيـة فى العصـر الوسيط . دار المعارف ١٩٤٥ .

- تاريخ الفلسفة الحديثة . القاهرة . ١٩٥٧ .

الفهرس

- مناقشة وتقييم لهذه البراهين: محصلة نقد هيوم للدين الطبيعي هي الشك - التجربة هي المعيار الوحيد للحكم على كل التساؤلات الخاصة بالواقع .

بداية الاعتقاد الديني : *الجانب الإيجابي لفلسفة الدين عند هيوم* .

- رد الدين إلى العاطفة والشعور عوضاً عن الإستدلال العقلى .
- نقائص العقل البشرى تؤدى بنا إلى كشف الحقيقة بعيون الإيمان .

* معنى المعجزة : « هى خروج عن المعنى المألوف أو هى خرق لقوانين الطبيعة ونواميس الكون » .

الإعتقاد فى الله قد أيدته الحجج التى تعتمد على المعجزات - المعجزة فيما يرى هيوم - هى ضد إطراد الطبيعة ، ولا يمكن أن تعد أساساً للنسق الدينى - إختلاف هذا التصور مع فهم المعجزة بوصفها جزءاً من النسق الدينى الفائق للطبيعة .

* عرض هيوم للمعجزة فى جزئين :

١) البرهان من التجربة برهان إحتمالى ، وهو سبيلنا الوحيد فى معرفتنا بأمور الواقع - ما يسمى حدثاً إعجازياً فى مكان ما قد لا يصبح كذلك فى مكان آخر نظراً لإختلاف الطبيعة .

- تناقض المعجزات عبر العصور المختلفة يؤدى إلى صعوبة ، بل خطورة تأكيد الحدث الإعجازى ، وذلك لتناقض البراهين ، وتضارب شهادة الشهود ، وكاتبى التاريخ .

٢) « لا برهان أو دليل بشرى كاف لإثبات حدوث المعجزة وجعلها أساساً للنسق الدينى » ، العقل المجرد غير كاف لإقناعنا بالمعجزة » .

أربع أسباب لتأسيس الحكم :

١- عدم كفاية الشهود .

٢- ميل البشر لتصديق كل ما هو عجيب وخارق ومعجز .

٣- تكثر المعجزة بين الشعوب الجهلة والمتأخرة .

رقم الايداع

٩٨/٧٩٨١

الترقيم الدولى I.S.B.N

977-19-6250-7